سورة التوبة

معانى الكلمات :

براءة من الله : تبرؤ وتباعد وأصل من الله .

فسيحوا : سيروا آمنين .

غير معجزى الله : غير فائتين من عذابه بالهرب .

أذان : إعلام .

لم يظاهروا : لم يعاونوا .

انسلخ : انقضت الأشهر .

احصروهم : احبسوهم .

كل مرصد : كل طريق وممر .

استجارك : استأمنك .

مأمنه : دار قومه .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعرف سبب نزول هذه الآيات من السورة .

٢ ـ أن نقف على طبيعة التشريعات النهائية للعلاقات الدولية كما جاءت بها الآيات .

٣ ـ أن نعلم أحكام القتال الواردة فى الآيات .

المحتوى التربوى :

هذه السورة مدنية من أواخر ما نزل من القرآن ، إن لم تكن هى آخر ما نزل من القرآن ، ومن ثم ، فقد تضمنت أحكامًا نهائية فى العلاقات بين الأمة المسلمة وسائر الأمم فى الأرض ، كما تضمنت تصنيف المجتمع المسلم ذاته ، وتحديد قيمه ومقاماته ، ووصف واقع هذا المجتمع بجملته ، وواقع كل طائفة منه وصفًا دقيقًا مبينًا .

وهذا المقطع من سياق السورة نزل متأخرًا عن بقيتها ؛ وإن كان قد جاء ترتيبه فى مقدماتها، وهو أمر توقيفى منه ﷺ ؛ وهو يتضمن إنهاء العهود التى كانت قائمة بين المسلمين والمشركين حتى ذلك الحين ، سواء كان هذا الإنهاء بعد أربعة أشهر لمن كانت عهودهم مطلقة ، أو الناكثين

لعهودهم ؛ أو كان بعد انتهاء الأجل لمن كانت لهم عهود مقيدة ، ولم ينقصوا المسلمين شيئاً ، ولم يظاهروا عليهم أحدًا ، فعلى الجملة كانت النتيجة الأخيرة هى إنهاء العهود مع المشركين فى الجزيرة العربية ؛ وإنهاء مبدأ التعاقد أصلاً مع المشركين بعد ذلك ، بالبراءة المطلقة من المشركين ، وباستنكار أن يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله .

وقد ذكر الإمام البغوى فى تفسيره أن المفسرين قالوا : إنه لما خرج رسول الله ﷺ إلى تبوك أرجف المنافقون ، وأخذ المشركون ينقضون عهودهم ، فأنزل الله الآيات بالنسبة لهؤلاء مع إمهالهم أربعة أشهر ، إن كانت مدة عهدهم أقل ، أو قصرها على أربعة أشهر إن كانت أكثر .

وذكر الإمام الطبرى ـ بعد استعراضه الأقوال فى تفسير مطلع السورة : وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب قول من قال : لأجل الذى جعله الله لأهل العهد من المشركين ، وأذن لهم بالسياحة فيه بقوله : ﴿ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ﴾ إنما هو لأهل العهد الذين ظاهروا على رسول الله ﷺ ونقضوا عهدهم قبل انقضاء مدته .

فأما الذين لم ينقضوا عهدهم ولم يظاهروا عليه ، فإن الله جل ثناؤه أمر نبيه ﷺ بإتمام العهد بينه وبينهم إلى مدته بقوله : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ .

يقول صاحب الظلال : اقتضت أن تفتتح السورة بهذا الإعلان العام ببراءة الله ورسوله من المشركين ، وأن يتكرر إعلان البراءة من الله ورسوله بعد آية واحدة بنفس القوة ونفس النعمة العالية ؛ حتى لا يبقى لقلب مؤمن أن يبقى على صلة مع قوم يبرأ الله منهم ويبرأ رسوله ؛ واقتضت تطمين المؤمنين وتخويف المشركين بأن الله مخزى الكافرين ، وأن الذين يتولون لا يعجزون الله ولا يفلتون من عذابه ؛ واقتضت استنكار أن يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله ـ إلا الذين عاهدتم ثم استقاموا فيستقام لهم مدة عهدهم ما استقاموا عليه ـ مع تذكير المؤمنين بأن المشركين لا يرقبون فيهم عهدًا ، ولا يتذممون من فعله لو أنهم قدروا عليهم ، وتصوير كفرهم ، وكذبهم فيما يظهرونه لهم أحيانًا من مودة بسبب قوتهم .

ومع إعلان البراءة المطلقة وهذه القرارات الحاسمة يجىء الترغيب فى الهداية والترهيب من الضلالة وهذا يشير إلى طبيعة المنهج الإسلامى ، إنه منهج هداية قبل كل شىء فهو يتيح للمشركين هذه المهلة لا لمجرد أنه لا يحب أن يباغتهم ويفتك بهم متى قدر ـ كما كان الشأن فى العلاقات الدولية ولا يزال ! ، ولكنه كان يمهلهم هذه المهلة للتروى والتدبر ، واختيار الطريق الأقوم ؛ ويرغبهم فى التوبة عن الشرك والرجوع إلى الله ، ويرهبهم من التولى ، ويبشهم من

جدواه ، وينذرهم بالعذاب الأليم فى الآخرة فوق الخزى فى الدنيا ، ويوقع فى قلوبهم الزلزلة التى ترجها رجاً لعل الركام الذى ران على الفطرة أن ينفض عنها ، فتسمع وتستجيب !

ثم هو طمأنة للصف المسلم ، ولكل ما فى قلوب بعضه من مخاوف ومن تردد وتهيب ومن تحرج وتوقع ، فالأمر قد صار فيه من الله قضاء ، والمصير قد تقرر من قبل الابتداء ! ولقد حدث ما ذكره ابن القيم من أن هؤلاء الذين استثناهم الله وأمر بالوفاء لهم بعهودهم قد دخلوا فى الإسلام قبل أن تنقضى مدتهم ، بل حدث أن الآخرين الذين ينقضون عهودهم وغيرهم ممن أمهلوا أربعة أشهر يسيحون فيها فى الأرض ، لم يسيحوا فى الأرض وإنما اختاروا الإسلام أيضاً !

لقد علم الله ـ سبحانه ـ وهو ينقل بيده خُطا هذه الدعوة ، أن الأوان قد آن لهذه الضربة الأخيرة ؛ وأن الظروف كانت قد تهيأت والأرض كانت قد مهدت ؛ وأنها تجىء فى أوانها المناسب، وفق واقع الأمر الظاهر ، وفق قدر الله المضمر المغيب فكان هذا الذى كان .

يقول صاحب الظلال بمناسبة قوله تعالى : ﴿ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ : لقد كانت هنالك وراءهم اثنان وعشرون سنة من الدعوة والبيان؛ ومن إيذائهم للمسلمين وفتنتهم عن دينهم ، ومن حرب للمسلمين وتأليب على دولتهم .. ثم من سماحة لهذا الدين ، ورسوله وأهله معهم .. وإنه لتاريخ طويل ، ومع هذا كله ، فلقد كان الإسلام يفتح لهم ذراعيه؛ فيأمر الله نبيه والمسلمين الذين أوذوا وفتنوا وحوربوا وشردوا وقتلوا ، كان يأمرهم أن يكفوا عن المشركين إن هم اختاروا التوبة إلى الله ، والتزموا شعائر الإسلام التى تدل على اعتناقهم هذا الدين واستسلامهم له وقيامهم بفرائضه . وذلك أن الله لا يرد تائبًا مهما تكن خطاياه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ لا غدر فى الإسلام ، ولا إكراه فى الدين ، ولكن عزة وقوة ، وسماحة ووضوح .

٢ ـ إنهاء مبدأ التعاقد أصلاً مع المشركين بعد ذلك ، ببراءة الله ورسوله المطلقة من المشركين ، وباستنكار أن يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله .

٣ ـ الإسلام منهج هداية قبل كل شىء ، وعندما يلجأ إلى الحرب والقتال يكون قد استنفد كل وسائل الحرب ، ويعلن خصمه فى إباء وشرف بإعلانها دون غدر .

٤ ـ الإسلام يصون ذمته فمن طلب الأمن من المشركين بلغه ، حتى يبلغ دار قومه دون غدر أو إكراه .

الجزء العاشر — سورة التوبة
كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند
رسوله إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما
استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين
٧ كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا
ولا ذمة يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم
فاسقون ٨ اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا فصدوا
عن سبيله إنهم ساء ما كانوا يعملون ٩ لا يرقبون
في مؤمن إلا ولا ذمة وأولئك هم المعتدون ١٠
فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم
في الدين ونفصل الآيات لقوم يعلمون ١١ وإن نكثوا
أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا
أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون
١٢ ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا
بإخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة
أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين ١٣
١٨٨

معانى الكلمات :

فما استقاموا لكم : فما أقاموا على العهد معكم .

يظهروا عليكم : يظفروا بكم .

لا يرقبوا : لا يرعوا .

إلًّا : رحمًا أو قرابة أو حلفا وعهدا .

ذمة : عهدًا وأمانًا وحقًا .

اشتروا : ابتاعوا .

نكثوا : نقضوا .

أئمة : رؤساء .

الأهداف الإجرائية والسلوكية .

١ ـ أن يعلم المسلم شيئاً من أخلاق المشركين .

٢ ـ أن يشعر المسلم بقيمة حفظ العهود .

٣ ـ أن يكون المسلم وفياً بالعهود .

المحتوى التربوى :

لما انتهى فى مجموعة الآيات السابقة إلى تقرير الأحكام النهائية الأخيرة بين المجتمع المسلم والباقين من المشركين فى الجزيرة ، وهى تعنى إنهاء حالة التعاهد والمهادنة معهم جميعاً .. بعضهم بعد مهلة أربعة أشهر ، وبعضهم بعد انتهاء مدتهم . حيث يؤول الأمر بعد هذه الأحكام إلى حالتين اثنتين : توبة وإقامة للصلاة وإيتاء للزكاة ـ أى دخول فى الإسلام وأداء لفرائضه ـ أو قتال وحصار وأسر و إرصاد .

لما انتهى إلى الأمر بإنهاء حالة التعاقد على ذلك الوجه أخذ فى هذه المجموعة الجديدة من الآيات يقرر عن طريق الاستفهام الاستنكارى ـ أنه لا ينبغى أن يكون للمشركين عهد عند الله

وعند رسوله ، وقيد هذا الإطلاق فى نبذ هذه العهود بالوفاء بعهود من استقاموا على عهودهم إلى مدتهم . وهى دقة بالغة فى صياغة النصوص فى هذه العلاقات والمعاملات .

ويبين الله سبحانه وتعالى استبعاد أن يوفى المشركون بعهودهم ، أو على الأقل بيَّن أنه لا يصح للنبى ﷺ ومن معه أن ينتظروا الوفاء من المشركين ؛ لأنهم خانوا الله ورسوله ، ومن يخن الله ورسوله فهو قد استمرأ النفاق ، والنفاق والوفاء بالعهد نقيضان لا يجتمعان ، فكيف يتوقع عند الله ورسوله أن يفوا بعهدهم لهما، وإذا كانوا كذلك فليس من المعقول أن يوفى الله تعالى لهم بعهد؛ لأن العهود توجب حقوقا وواجبات متبادلة ، فمن توقع عدم الوفاء وتأكد له النكث فى العهد ، فليس عليه وفاء .

واستنكار مبدأ التعاهد لأسبابه التاريخية والواقعية ، بعد استنكاره لأسبابه العقدية والإيمانية فهم لا يعاهدونكم إلا فى حال عجزهم عن التغلب عليكم ، ولو ظهروا عليكم وغلبوكم لفعلوا بكم الأفاعيل فى غير مراعاة لعهد قائم بينهم وبينكم ، وفى غير ذمة يرعونها لكم ؛ أو فى غير تحرج ولا تذمم من فعل يأتونه معكم ! فهم لا يرعون عهدًا ، ولا يقفون كذلك عند حد فى التنكيل بكم، وإذا كانوا اليوم ـ وأنتم أقوياء ـ يرضونكم بأفواههم بالقول اللين والتظاهر بالوفاء بالعهد ، فإن قلوبهم تنغل عليكم بالحقد ، وتأبى أن تقيم على العهد ؛ فما بهم من وفاء لكم ولا ود ! والسبب فى ذلك هو أن : ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ۝ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

ويقول صاحب الظلال : « وهذا هو السبب الأصيل لهذا الحقد الدفين عليكم ، وإضمار عدم الوفاء بعهودكم ، والانطلاق فى التنكيل بكم ـ لو قدروا ـ عن كل تحرج ومن كل تذمم .. إنه الفسوق عن دين الله ، والخروج عن هداه ، فلقد آثروا على آيات الله التى جاءتهم ثمنا قليلا من عرض هذه الحياة الدنيا يستمسكون به ويخافون فوته ، وقد كانوا يخافون أن يضيع عليهم الإسلام شيئا من مصالحهم ، أو أن يكلفهم شيئا من أموالهم ، فصدوا عن سبيل الله بسبب شرائهم هذا الثمن القليل بآيات الله ، صدوا أنفسهم وصدوا غيرهم أما فعلهم هذا فهو الفعل السيئ الذى يقرر الله سوءه الأصيل .

ثم إنهم لا يضمرون هذا الحقد لأشخاصكم، ولا يتبعون تلك الخطة المنكرة معكم بذواتكم، إنهم يضطغنون الحقد لكل مؤمن ، ويتبعون هذا المنكر مع كل مسلم ، إنهم يوجهون حقدهم وانتقامهم لهذه الصفة التى أنتم عليها ؛ للإيمان ذاته » .

وتعرض الآيات صفات أخرى للمشركين فى قوله ـ تعالى : ﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴾ فصفة الاعتداء أصيله فى الكافرين ، تبدأ من نقطة كرههم للإيمان

ذاته وصدودهم عنه ، وتنتهى بالوقوف فى وجهه ، وتربصهم بالمؤمنين ، وعدم مراعاته لعهد معهم ولا صلة ، إذا هم ظهروا منهم ، وأمنوا بأسهم وقوتهم وعندئذ يفعلون الأفاعيل غير مراعين لعهد قائم ، ولا متحرجين ولا متذممين من منكر يأتونه وهم آمنون .

وتسوق الآيات المنهج الذى يجب أن يتبعه المؤمنون فى مواجهة المشركين بأن الركون إليهم لا يتم إلا بدخول هؤلاء المشركين فى الإسلام ، وتوبتهم عما مضى من الشرك والاعتداء ، أما من ينكث عهده مع المسلمين ويطعن فى الإسلام فيجب مواجهته وهذا ما يلفت الانتباه لوجوب تقوية المعسكر المسلم حتى نرهب الأعداء .

يقول الإمام محمد أبو زهرة : « استنبط الفقهاء من هذه الآية بأن الذمى أو الحربى إذا طعن فى الإسلام يقتل ... وقد كان الصحابة يقتلون من يسب النبى ﷺ ولو بالتعريض .. » .

إن هذه الأحكام هى أمر إلهى يزيد إدراكنا لها ذلك التاريخ الطويل من الواقع العملى ، بالإضافة إلى طبيعة المعركة المحتومة بين منهج الله الذى يخرج الناس من العبودية للعباد ويردهم إلى عبادة الله وحده ، وبين منهج الجاهلية التى تعبد الناس للعبيد ، ويواجهه المنهج الحركى الإسلامى بتوجيه من الله ـ سبحانه ، بهذا الحسم الصريح :

الآيات ترشد المؤمنين أن معارك المسلمين ليست مع أهل الكتاب فقط ، بل إن معارك المسلمين مع الوثنيين وصلت لذروتها فى كثير من الفترات قديمًا ضد المشركين لأنبياء الله : نوح، وصالح وإبراهيم وشعيب وموسى وعيسى عليهم السلام صلوات الله وسلامه ومعاداة المشركين لرسول الله محمد ﷺ ، ثم مذابح مشركى التتار مع المسلمين ، ولم ولن ينتهى صراع المشركين واليهود مع المسلمين ، ويبين ذلك قوله ـ تعالى : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانًا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ۝٨٢ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ (المائدة) .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ التحذير من الغدر والخيانة .

٢ ـ مشروعية القتال فى الإسلام لرد العدوان وتأمين العقيدة وحماية المسلمين .

٣ ـ استبعاد أن يكون هناك عهد موثوق للمشركين .

٤ ـ وجوب إتمام العهد إلى المدة المحددة لمن لم يكن نقض عهده من المشركين أو غيرهم .

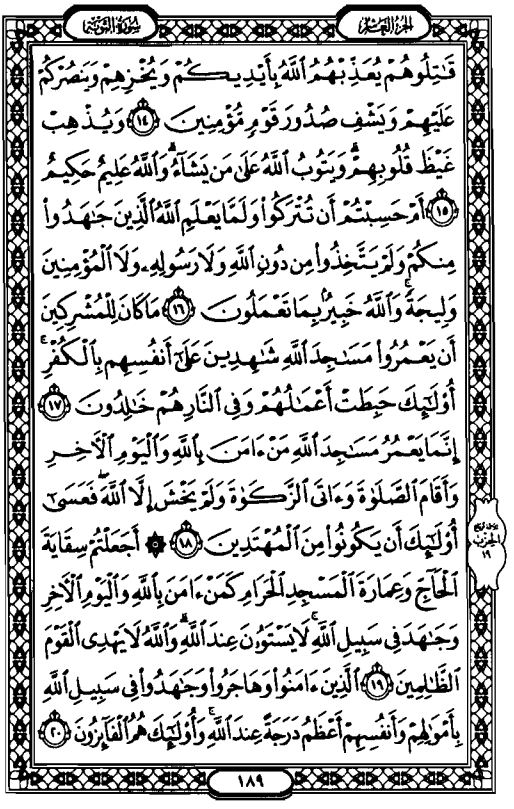
قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ
عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ
غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ
﴿١٥﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟
مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ
وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ
أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ
أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾
إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ
وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ
أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ
ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ
وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ
بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾
١٨٩

معانى الكلمات :

غيظ قلوبهم : غضبها وحزنها الشديد .

ولما يعلم : ولم يعلم حتى وقت التكلم (أى لم يظهر منهم) .

وليجة : أعوانًا وحاشية وأصحاب سر وأولياء .

حبطت أعمالهم : بطلت وذهبت أجورها لكفرهم .

يعمر مساجد الله : يُعَمّرها بالذكر والعبادة.

فعسى : فيرجى .

سقاية الحاج : سقى الحجيج الماء .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم مشروعية قتال المشركين والحكمة من التحريض عليه .

٢ ـ أن نعرف المقصود بعمارة مساجد الله ومن أحق الناس بعمارتها .

٣ ـ دحض دعاوى المشركين بأحقية عمارة مساجد الله .

٤ ـ بيان أهمية الإخلاص والتقوى فى كل عمل .

المحتوى التربوى :

فى هذه الآيات يستجيش مشاعر المؤمنين بتلك الذكريات والوقائع والأحداث ، وهم يتذكرون مبادأة المشركين لهم بالعداء والقتال ـ بطرًا وطغيانًا ـ وفى غمرة هذه الأحداث يحرض المؤمنين على القتال قائلاً لهم : قاتلوهم يجعلكم الله ستار قدرته، وأداة مشيئته ، فيعذبهم بأيديكم، ويخزهم بالهزيمة وهم يتخايلون بالقوة ، وينصركم عليهم ويشف صدور جماعة من المؤمنين ممن آذاهم وشردهم المشركون يشفها من غيظها المكظوم ، بانتصار الحق كاملاً ، وهزيمة الباطل ، وتشريد المبطلين .

وليس هذا وحده ولكنَّ خيراً آخر يُنتظر وثواباً آخر يُنال : فانتصار المسلمين قد يرد بعض المشركين إلى الإيمان ، ويفتح بصيرتهم على الهدى حين يرون المسلمين ينصرون ، ويحسون أن قوة غير قوة البشر تؤيدهم ، ويرون آثار الإيمان فى مواقفهم ـ وهذا ما كان فعلاً ـ وعندئذٍ ينال المسلمون المجاهدون أجر جهادهم ، وأجر هداية الضالين بأيديهم ؛ وينال الإسلام قوة جديدة تضاف إلى قوته بهؤلاء المهتدين التائبين .

يقول صاحب الظلال : « إن بروز قوة الإسلام وتقريرها يستهوى قلوبًا كثيرة تصد عن الإسلام الضعيف ، أو الإسلام المجهول القوة والنفوذ . وإن الدعوة إلى الإسلام لتختصر نصف الطريق حين تكون الجماعة المسلمة بادية القوة ، مرهوبة الجانب ، عزيزة الجناب .

على أن الله ـ سبحانه ـ وهو يربى الجماعة المسلمة بالمنهج القرآنى الفريد لم يكن يعدها وهى فى مكة قلة قليلة مستضعفة مطاردة ، إلا وعدًا واحدًا وهو الجنة ، ولم يكن يأمرها إلا أمرًا واحدًا هو هو الصبر ، فلما أن صبرت وطلبت الجنة وحدها دون الغلب ، آتاها الله النصر ، وجعل يحرضها عليه ويشفى صدورها به .ذلك أن الغلب والنصر عندئذ لم يكن لها ولكن لدينه وكلمته، وإن هى إلا ستار لقدرته .

ثم إنه لم يكن بد أن يجاهد المسلمون المشركين كافة ، وأن تنبذ عهود المشركين كافة ، وأن يقف المسلمون إزاءهم صفًا ، لم يكن بد من ذلك لكشف النوايا والخبايا ، ولإزالة الأستار التى يقف خلفها من لم يتجرد للعقيدة ، والأعذار التى يحتج بها من يتعاملون مع المشركين للكسب ، ومن يوادونهم لآصرة من قربى أو مصلحة ، لم يكن بد من إزالة هذه الأستار والمعاذير ، وإعلان المفاصلة للجميع ، لينكشف الذين يخبئون فى قلوبهم خبيئة ويتخذون من دون الله ورسوله والمؤمنين وليجة ، يلجون منها إلى مصالحهم وروابطهم مع المشركين ، فى ظل العلاقات غير المتميزة أو الواضحة بين المعسكرات المختلفة .

وإنه لمن مصلحة الجماعة ، ومن مصلحة العقيدة ، أن تهتك الأستار وتكشف الولائج ، وتعرف المداخل ، فيمتاز المكافحون المخلصون ، ويُكشف المدارون الملتوون ، ويعرف كلا الفريقين على حقيقته ، وإن كان يعلمهم من قبل .

وبعد البراءة والإعلان لم يبق عذر ولا حجة لمن لا يقاتل المشركين ؛ ولم يعد هناك تردد فى حرمانهم زيارة البيت أو عمارته ، وقد كانوا يقومون بهما فى الجاهلية ، وهنا ينكر السياق على المشركين أن يكون لهم الحق فى أن يعمروا بيوت الله ، فهو حق خالص للمؤمنين بالله ، القائمين بفرائضه وما كانت عمارة البيت فى الجاهلية وسقاية الحاج لتغير من هذه القاعدة ؛ لأن العبادة تعبير عن العقيدة ، فإذا لم تصح العقيدة لم تصح العبادة ، وأداء الشعائر وعمارة المساجد ليست

بشيء ما لم تعمر القلوب بالاعتقاد الإيمانى الصحيح ، وبالعمل الواقع الصريح ، وبالتجرد لله فى العمل والعبادة على السواء .

هذه هى القاعدة فى استحقاق عمارة بيوت الله ، وفى تقويم العبادات والشعائر على السواء فما يجوز أن يسوى الذين كانوا يعمرون الكعبة ويسقون الحجيج فى الجاهلية ، وعقيدتهم ليست خالصة لله ، ولا نصيب لهم من عمل أو جهاد ، لا يجوز أن يسوى هؤلاء ـ لمجرد عمارتهم للبيت وخدمتهم للحجيج ـ بالذين آمنوا إيمانًا صحيحًا ، وجاهدوا فى سبيل الله وإعلان كلمته .

وميزان الله هو الميزان وتقديره هو التقدير : ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ المشركين الذين لا يدينون دين الله الحق ، ولا يخلصون عقيدتهم من الشرك ، ولو كانوا يعمرون البيت ويسقون الحجيج ، وينتهى هذا المعنى بتقرير فضل المؤمنين المهاجرين المجاهدين ، وما ينتظرهم من رحمة ورضوان ، ومن نعيم مُقيم وأجر عظيم .

ويقول صاحب الظلال : وأفعل التفضيل هنا فى قوله :﴿ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ﴾ ليس على وجهه ، فهو لايعنى أن للآخرين درجة أقل ، إنما هو التفضيل المطلق ، فالآخرون : ﴿ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴾ فلا مفاضلة بينهم وبين المؤمنين المهاجرين المجاهدين فى درجة ولا نعيم .

يقول صاحب الأساس : بمناسبة قوله : ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ يقول : وعلى الرواية التى تفيد أن الخطاب للمسلمين يمكن أن نستخرج من الآية معنى تكمّله نصوص كثيرة : إن هناك حسنات وهناك سيئات ، ولقد أعطى الشارع للسيئات أحجاماً ، كما أعطى للحسنات أحجامًا ، فالشرك أكبر من الربا ، والربا أكبر من الزنا ، والتوحيد أعظم من الصلاة ، والجهاد أفضل من مجاورة المسجد الحرام وهكذا ...

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ الكفر والشرك يبطلان جميع الأعمال ـ الفاضلة ـ فلا يكون لأصحابها جزاء عند الله يوم القيامة .

٢ ـ عمارة المساجد جدير بها أهل الإيمان الذين يعظمون حرمات الله .

٣ ـ عمارة المساجد تشمل بناءها ، وإصلاحها والإقامة فيها ، ولزومها للعبادة من صلاة وذكر ومدارسة للقرآن وتعليم وتعلّم ، واعتكاف وغير ذلك من الأمور المعنوية .

٤ ـ وجوب الإخلاص لله فى القول والعمل .

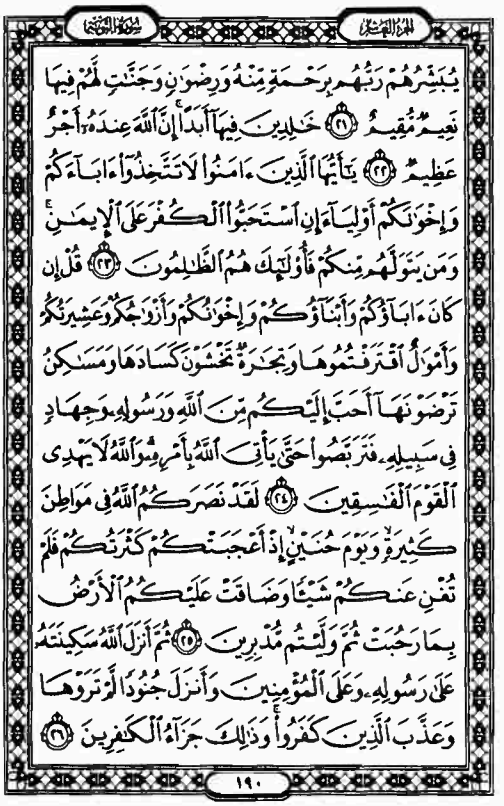
يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا
نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ
عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ
وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ
وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن
كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ
وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ
تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ
فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى
ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ
كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ
تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ
بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ
عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا
وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾
١٩٠

معانى الكلمات :

مقيم : دائم .

أولياء : أصدقاء وأحباب .

استحبوا : اختاروا .

عشيرتكم : أقرباؤكم .

اقترفتموها : اكتسبتموها .

كسادها : بوارها .

فتربصوا : فانتظروا .

الفاسقين : الخارجين عن دين الله .

بما رحبت : مع رحبها أى وسعها .

وليتم مدبرين : انهزمتم

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعرف قدر العقيدة ونتجرد لها مما سواها من الصلات .

٢ ـ أن نعتبر بموازين النصر والهزيمة من الآيات .

٣ ـ أن نتعلم كيف نحب رسول الله ﷺ ونؤثر العقيدة على ما سواها .

المحتوى التربوى :

تمضى هذه الآيات فى خطاها المباركة فى تجريد المشاعر والصلات فى قلوب الجماعة المؤمنة ، وتمحيصها لله ولدين الله؛ فيدعو إلى تخليصها من وشائج القربى والمصلحة واللذة ، ويجمع كل لذائذ البشر ، وكل وشائج الحياة ، فيضمها فى كفة ، ويضع حب الله ورسوله وحب الجهاد فى سبيله فى الكفة الأخرى ، ويدع للمسلمين الخيار .

ويقول صاحب الظلال : إن هذه العقيدة لا تحتمل لها فى القلب شريكاً ؛ فإما تجرد لها ، وإما انسلاخ منها ، وليس المطلوب أن ينقطع المسلم عن الأهل والعشيرة والزوج والولد والمال والعمل والمتاع واللذة ، ولا أن يترهبن ويزهد فى طيبات الحياة .. كلا إنما تريد هذه العقيدة أن يخلص لها القلب ، ويخلص لها الحب ، وأن تكون هى المسيطرة والحاكمة ، وهى المحركة

والدافعة . فإذا تم لها هذا فلا حرج عندئذ أن يستمتع المسلم بكل طيبات الحياة ؛ على أن يكون مستعداً لنبذها كلها فى اللحظة التى تتعارض مع مطالب العقيدة .

ومفرق الطريق هو أن تسيطر العقيدة أو يسيطر المتاع ، وأن تكون الكلمة الأولى للعقيدة أو لعرض من أعراض هذه الدنيا ، فإذا اطمأن المسلم إلى أن قلبه خالص لعقيدته ، فلا عليه بعد هذا أن يستمتع بالأبناء والإخوة وبالزوج والعشيرة ؛ ولا عليه أن يتخذ الأموال والمتاجر والمساكن ؛ ولا عليه أن يستمتع بزينة الله والطيبات من الرزق ـ فى غير سرف ولا مخيلة بل إن المتاع بها حينئذ لمستُحب ، باعتباره لونًا من ألوان الشكر لله الذى أنعم بها ليتمتع بها عباده، وهم يذكرون أنه الرازق المنعم الوهاب .

ولا يكتفى السياق بتقرير المبدأ ، بل يأخذ فى استعراض ألوان الوشائج والمطامع واللذائذ، ليضعها كلها فى كفة ، ويضع العقيدة ومقتضياتها فى الكفة الأخرى : الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة « وشيجة الدم والنسب والقرابة والزواج » والأموال والتجارة (مطمع الفطرة ورغبتها) والمساكن المريحة (متاع الحياة ولذتها) .

وفى الكفة الأخرى :حب الله ورسوله وحب الجهاد فى سبيله ـ الجهاد بكل مقتضياته وبكل مشقاته. الجهاد وما يتبعه من تعب ونصب، وما يتبعه من تضييق وحرمان ، وما يتبعه من جراح واستشهاد ، وهو ـ بعد هذا كله ـ « الجهاد فى سبيل الله» مجرداً من الصيت والذكر والظهور : مجرداً من المباهاة والفخر والخيلاء ، مجرداً من إحساس أهل الأرض به وإشارتهم إليه وإشارتهم بصاحبه ، وإلا فلا أجر عليه ولا ثواب .

وهذا التجرد لا يطالب به الفرد وحده ، إنما تطالب به الجماعة المسلمة والدولة المسلمة فما يجوز أن يكون هناك اعتبار لعلاقة أو مصلحة يرتفع على مقتضيات العقيدة فى الله ومقتضيات الجهاد فى سبيل الله .

وما يكلف الله الفئة المؤمنة هذا التكليف ، إلا وهو يعلم أن فطرتها تطيقه ـ فالله لا يكلف نفسًا إلا وسعها ـ وإنه لمن رحمة الله بعباده أن أودع فطرتهم هذه الطاقة العالية من التجرد والاحتمال ، وأودع فيها الشعور بلذة علوية لذلك التجرد لا تعدلها لذائذ الأرض كلها ، لذة الشعور بالاتصال بالله ، ولذة الرجاء فى رضوان الله ، ولذة الاستعلاء على الضعف والهبوط ، والخلاص من ثقلة اللحم والدم ، والارتفاع إلى الأفق المشرق الوضىء ، فإذا غلبتها ثقلة الأرض ففى التطلع إلى الأفق ما يجدد الرغبة الطامعة فى الخلاص والفكاك .

ويذكرهم الله باستعراض صفحة من الواقع الذى عاشه المسلمون إذ ذاك منذ قريب المواطن التى نصرهم الله فيها ، ولم تكن لهم قوة ولا عُدة ، ويوم حنين الذى هزموا فيه بكثرتهم ثم

نصرهم الله بقوته ، يوم أن انضم إلى جيش الفتح ألفان فقط من الطلقاء ! يوم أن غفلت قلوب المسلمين لحظات عن الله مأخوذة بالكثرة فى العدد والعتاد ليعلم المؤمنون أن التجرد لله ، وتوثيق الصلة به هى عدة النصر التى لا تخذلهم حين تخذلهم الكثرة فى العدد والعتاد ، وحين يخذلهم المال والإخوان والأولاد .

ويقول صاحب الظلال : ولقد كان نصر الله لهم فى المواطن الكثيرة قريبًا من ذاكرتهم لا يحتاج إلى أكثر من الإشارة . فأما وقعة حنين فكانت بعد فتح مكة فى شوال سنة ثمان من الهجرة ، وذلك لما فرغ ﷺ من فتح مكة، وتمهدت أمورها ، وأسلم عامة أهلها، وأطلقهم رسول الله ﷺ فبلغه أن هوازن جمعوا له ليقاتلوه ، فخرج إليهم رسول الله ﷺ فى جيشه الذى جاء معه للفتح ، وكانت الكرة للمسلمين فى أول الأمر ، ثم دارت رحى القتال وتبدل النصر إلى انكسار ـ بسبب الإعجاب بالكثرة وحين غفلوا عن سبب النصر الأول ، فردهم الله بالهزيمة فى أول المعركة إليه ، ثم نصرهم بالقلة المؤمنة التى ثبتت مع رسول الله ﷺ والتصقت به .

والسياق يعرض المعركة هنا ؛ ليعرض نتائج الانشغال عن الله ، والاعتماد على قوة غير قوته ، ليكشف لنا عن حقيقة أخرى ضمنية ، وهى أن الكثرة العددية ليست بشىء ، إنما هى القلة العارفة المتصلة الثابتة المتجردة للعقيدة .

وإن الكثرة لتكون أحيانًا سببًا فى الهزيمة ، لأن بعض الداخلين فيها ، التائهين فى غمارها ممن لم يدركوا حقيقة العقيدة التى ينساقون فى تيارها ، تتزلزل أقدامهم وترتجف فى ساعة الشدة ؛ فيشيعون الاضطراب والهزيمة فى الصفوف ، فوق ما تخدع الكثرة أصحابها فتجعلهم يتهاونون فى توثيق صلتهم بالله ، انشغالًا بهذه الكثرة الظاهرة عن اليقظة لسر النصر فى الحياة .لقد قامت كل عقيدة بالصفوة المختارة، لا بالزبد الذى يذهب جفاء، ولا بالهشيم الذى تذروه الرياح .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ العبرة فى المعارك ليست بقوة السلاح ولا بكثرة العدد ، وإنما بالإيمان الصادق والثبات والإخلاص لله .

٢ ـ لثبات القائد وشجاعته أثر عظيم فى تحقيق النصر ، والاغترار بالقوة والكثرة من أسباب الهزيمة .

٣ ـ حب أصحاب الرسول ﷺ له ، وشجاعة القائد النادرة ، وفضل الله عليه وعلى المؤمنين من أسباب النصر.

ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ
رَّحِيمٞ ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ
نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ
وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن
شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٢٨﴾ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ
لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ
ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ
ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ
﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى
ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ
يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ
ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ
وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ
مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ
لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٣١﴾
١٩١

معانى الكلمات :

نجس : قذر ، لخبث باطنهم وفساد عقيدتهم .

خفتم عيلة : خفتم فقرًا .

الذين أوتوا الكتاب : اليهود والنصارى .

عن يدٍ : منقادين أو عن قهر وقوة .

صاغرون : أذلاء .

يضاهئون : يشابهون فى الكفر .

أنى يؤفكون ؟ : كيف يصرفون عن الحق .

أحبارهم : علماء اليهود .

رهبانهم : متعبدى النصارى .

أربابًا: معبودات أطاعوهم كما يطاع الرب .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان العلة من وجوب قتال أهل الكفر والعدوان .

٢ ـ أن نقف على الأحكام والتعديلات النهائية فى معاملة أهل الكتاب .

٣ ـ أن ننزه الله ـ عز وجل ـ عن الولد والند والشريك وعن مشابهة خلقه .

المحتوى التربوى :

فى هذه الآيات ، ينهى السياق القول فى شأن المشركين ، ويلقى الكلمة الباقية فيهم إلى يوم الدين بأنهم نجس ، ويجسم التعبير نجاسة أرواحهم فيجعلها ماهيتهم وكيانهم ، فهم بكليتهم وبحقيقتهم نجس ، يستقذره الحس ، ويتطهر منه المتطهرون ! وهو النجس المعنوى لا الحسى فى الحقيقة ، فأجسامهم ليست نجسة بذاتها ، إنما هى طريقة التعبير القرآنية بالتجسيم .

ولهذا النجس أمر ـ عز وجل ـ ألا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ، وتلك غاية فى تحريم وجودهم بالمسجد الحرام ، حتى لينصبّ النهى على مجرد القرب منه !

ولكن الموسم الاقتصادى الذى ينتظره أهل مكة ؛ والتجارة التى يعيش عليها معظم الظاهرين فى الجزيرة ؛ ورحلة الشتاء والصيف التى تكاد تقوم عليها الحياة ، إنها كلها ستتعرض للضياع بمنع المشركين من الحج ، وبإعلان الجهاد العام على المشركين كافة .. نعم ! ولكنها العقيدة ، والله يريد أن تخلص القلوب كلها للعقيدة .

وبعد ذلك ، فالله هو المتكفل بأمر الرزق من وراء الأسباب المعهودة المألوفة . وحين يشاء الله يستبدل أسبابًا بأسباب ؛ وحين يشاء يغلق بابًا ويفتح الأبواب ، يدبر الأمر كله عن علم وعن حكمة ، وعن تقدير وحساب .

ويقول صاحب المنار : بمناسبة قوله ـ تعالى : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ ﴾ ؛ يقول : وأما الغنى من فضل الله فهو أعم مما ورد فى الروايات معينا ومبهما ، فقد أغنى الله المؤمنين من العرب السابقين إلى الإسلام ، ثم من سائر المسلمين جميع أنواع الغنى ، فتح لهم البلاد ، وسخر لهم العباد ، فكثرت الغنائم والخراج ، ومهد لهم سبل الملك والملك ، وبسط لهم فى الرزق ، من أمارة وتجارة وزراعة وصناعة ، وكان نصيب مكة نفسها من ذلك عظيماً بكثرة الحاج وأمن طرق التجارة .

وقيد هذا الغنى بقوله : ﴿ فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ ﴾ للدلالة على أن هذا الوعد إنما يكون مستقبلاً لا فى الحال ، وعلى أنه واسع بسعة فضله ـ تعالى ـ وغيب لا يخطر لهم أكثره ببال وقد صدق وعده به فكان من معجزات القرآن .

ثم ينتقل السياق لتقرير الأحكام النهائية فى العلاقات بين المجتمع المسلم وأهل الكتاب ، وتحوى هذه الأحكام بعض التعديلات الأساسية فى القواعد التى كانت تقوم عليها العلاقات من قبل بين المجتمع المسلم وأهل الكتاب ـ وبخاصة النصارى منهم ـ فلقد كانت وقعت المواقع قبل ذلك مع اليهود ؛ ولكن حتى هذا الوقت لم يكن قد وقع منها شىء مع النصارى .

والتعديل البارز فى هذه الأحكام الجديدة هو الأمر بقتال أهل الكتاب المنحرفين عن دين الله حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، فلم تعد تقبل منهم عهود موادعة ومهادنة إلا على هذا الأساس . أساس إعطاء الجزية ، وفى هذه الحالة تتقرر لهم حقوق الذمى المعاهد ؛ ويقوم السلام بينهم وبين المسلمين ، فأما إذا هم اقتنعوا بالإسلام عقيدة فاعتنقوه فهم من المسلمين .

يقول صاحب الظلال : وهذا التعديل الأخير فى قواعد التعامل بين المجتمع المسلم وأهل الكتاب لا يفهم على طبيعته إلا بالفقه المستنير لطبيعة العلاقات الحتمية بين منهج الله ومناهج

الجاهلية من ناحية . ثم لطبيعة المنهج الحركى الإسلامى ، ومراحله المتعددة ، ووسائله المتجددة المكافئة للواقع البشرى المتغير من الناحية الأخرى .

ومن أجل هذا يحدد السياق القرآنى فى هذا المقطع من السورة طبيعة هذه العلاقات ، حدد حقيقة ما عليه أهل الكتاب ؛ ونص على أنه شرك وكفر وباطل والنصوص تقرر :

أولًا : أنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر .

ثانياً : أنهم لا يحرمون ما حرّم الله ورسوله .

ثالثاً : أنهم لا يدينون دين الله .

رابعاً : أن اليهود منهم قالوا : عزير ابن الله ، وأن النصارى منهم قالت : المسيح ابن الله تعالى الله سبحانه عن قولهم علواً كبيراً ، وأنهم فى هذين القولين يضاهئون قول الذين كفروا من قبل الوثنيين الإغريق أو الوثنيين الرومان .

خامساً : أنهم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ، كما اتخذوا المسيح رباً ، وأنهم بهذا خالفوا عما أمروا به من توحيد الله والدينونة له وحده ، وأنهم لهذا مشركون !

سادساً : أنهم محاربون لدين الله يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم وأنهم لهذا كافرون !

سابعاً: أن كثيراً من أحبارهم ورهبانهم يأكلون أموال الناس بالباطل، ويصدون عن سبيل الله .

وعلى أساس هذه الأوصاف وهذا التحديد لحقيقة ما عليه أهل الكتاب ، قرر الأحكام النهائية التى تقوم عليها العلاقات بينهم وبين المؤمنين بدين الله ، والقائمين على منهج الله .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ باب التوبة مفتوح أمام الكافرين إذا أسلموا وتركوا ما عليه من الكفر والضلال ، ورحمة الله تشملهم فالإسلام يجبّ ما قَبْله .

٢ ـ وجوب قتال أهل الكفر والعدوان الذين رفضوا الدخول فى دين الله والتنعم فى ظلاله الوارفة وأحكامه العادلة .

٣ ـ الأمر بدعوة أهل الكتاب ـ اليهود والنصارى ـ إلى الدخول فى الإسلام ، فإن رفضوا لم نقاتلهم ، وإنما يدفعون الجزية فإن رفضوا دفع الجزية ، قوتلوا حتى يرجعوا إلى دين الله ، ويرضوا بحكمه منقادين خاضعين .

٤ ـ فساد عقيدة أهل الكتاب فى نسبة الولد إلى الله ، والله ـ تعالى ـ منزه عن الشريك وعن مشابهة خلقه .

يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ
أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ
أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ
كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ
أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ
وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا
فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ
عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ
وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ
تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ
شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ
مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ
أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا
يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾
١٩٢

معانى الكلمات :

نور الله : شرعه وبراهينه .

بأفواههم : بأقوالهم فيه .

يتم : يظهر .

يظهره : يعليه .

على الدين كله : على جميع الأديان المخالفة له .

يأكلون : يأخذون .

بشرهم : أخبرهم وأنذرهم .

تكوى : تحرق .

كتاب الله : اللوح المحفوظ .

الدين القيم : الدين المستقيم ملة إبراهيم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعرف حقيقة أهل الكتاب وطبيعة موقفهم من دين الله .

٢ ـ أن نعرف عاقبة الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها .

٣ ـ أن نعظم حرمة الأشهر الحرم ، ونلتزم بأوامر الله فيها .

المحتوى التربوى :

تمضى هذه الآيات فى تحريض المؤمنين على القتال ، وذلك لأن أهل الكتب لا يقفون عند حد الانحراف عن دين الحق ، وعبادة أرباب من دون الله وعدم الإيمان بالله وباليوم الآخر ـ وفق المفهوم الصحيح للإيمان بالله واليوم الآخر ـ إنما هم كذلك يعلنون الحرب على دين الحق ، ويريدون إطفاء نور الله فى الأرض المتمثل فى هذا الدين ، وفى الدعوة التى تنطلق به فى الأرض ، وفى المنهج الذى يُصوغ على وفقه حياة البشر فهم ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ ﴾ فهم محاربون لنور الله . وسواء بما يطلقونه من أكاذيب ودسائس وفتن ، أو بما يحرضون به أتباعهم

وأشياعهم على حرب هذا الدين وأهله ، والوقوف سدًا فى وجهه ـ كما كان هو الواقع الذى تواجهه هذه النصوص وكما هو الواقع على مدار التاريخ .

ولكن أنى لهم ذلك والله يأبى إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون وسنته فى ذلك الوعد الحق لا تتبدل ولا تتغير ، فى إتمام نوره بإظهار دينه ولو كره الكافرون .

وكما يقول صاحب الظلال : هو وعد تطمئن له قلوب الذين آمنوا ، فيدفعهم هذا إلى المضى فى الطريق على المشقة واللأواء فى الطريق ؛ وعلى الكيد والحرب من الكافرين كما أنه يتضمن فى ثناياه الوعيد لهؤلاء الكافرين وأمثالهم على مدار الزمان !

ثم يخطو السياق الخطوة الأخيرة فى هذا المقطع من السورة ، مصورًا كيف أن أهل الكتاب لا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، بعد ما أشار إلى هذه الحقيقة فى قوله ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ ، التى فسرها رسول الله ﷺ بأنهم « أحلوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال ، فاتبعوهم » فبين أنهم إذن لا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، إنما يحرمون ما حرمه عليهم الأحبار والرهبان !

وتستطرد الآيات فى بيان حقيقة أهل الكتاب ، فهؤلاء الأحبار والرهبان يجعلون من أنفسهم ويجعلهم قومهم أربابًا تتبع وتطاع ، وهم فيما يشرعون يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله .

منها ما يأخذونه على فتاوى تحليل الحرام وتحريم الحلال لصالح من يملكون المال أو السلطان .

ومنها ما يأخذونه ويجمعونه من أموال الناس لمحاربة دين الحق ؛ وقد كان الرهبان والأساقفة والبابوات يجمعون مئات الملايين فى الحروب الصليبية ، وما يزالون يجمعونها للتبشير والاستشراق للصد عن سبيل الله .

ويصور القرآن الكريم عذابهم فى الآخرة بما كنزوا ، وعذاب كل من يكنز الذهب والفضة ولا ينفقها فى سبيل الله ؛ ويرسم تفاصيل هذا المشهد المرعب ـ كما ورد بالآيات .

يحذر صاحب الظلا من نظرات البعض لأهل الكتاب دين بقوله : « إن تعرية أهل الكتاب من شبهة أنهم على دين الله ، ألزم وأشد ضرورة من بيان حال المشركين الصريحين فى شركهم الشاهدين على أنفسهم بالكفر بظاهر عقائدهم وشعائرهم .

ثم يستطرد السياق فى إزالة المعوقات التى كانت قائمة فى طريق النفرة إلى جهاد الروم وحلفائهم من نصارى العرب فى شمال الجزيرة،ذلك أن الاستنفار لهذه الغزوة ـ تبوك ـ كان فى رجب من الأشهر الحُرم، ولكن كانت هناك مُلابسة واقعة ، وهى أن رجباً لهذا العام لم يكن فى

موعده الحقيقى ! وكذلك بسبب « النسىء» الذى سيرد فى الآية التى تلى هذه الآية ! فكأن رجبًا كان فى جمادى الآخرة . وسر هذا الاضطراب كله هو اضطراب الجاهلية فى تقاليدها فتارة يقدمون الشهور ، وتارة أخرى يقدمونها حسب أهوائهم ووفق مصالحهم .

والنص هنا يرد معيار الزمن ، وتحديد دورانه إلى طبيعة الكون التى فطره الله عليها . وإلى أصل الخلقة خلقة السموات والأرض ، ويشير إلى أن هناك دورة زمنية ثابتة ، مقسمة إلى اثنى عشر شهراً يستدل على ثباتها بثبات عدة الأشهر فلا تزيد فى دورة وتنقص فى دورة ، وأن ذلك فى كتاب الله ـ أى فى ناموسه الذى أقام عليه نظام هذا الكون ، فهى ثابتة على نظامها ؛ لا تتخلف ولا تتعرض للنقص والزيادة ؛ لأنها تتم وفق قانون ثابت .

وهذا من سمت هذا الدين القيم الأصيل الذى تقوم به السموات والأرض ، منذ أن خلق الله السموات والأرض ، ويأمر المؤمنين ألا يظلموا أنفسهم فى هذه الأشهر الحرم التى يتصل تحريمها بناموس كونى تقوم عليه السموات والأرض ، ذلك الناموس هو أن الله هو المشرع للناس كما أنه هو المشرع للكون .. لا تظلموا أنفسكم بإحلال حرمتها التى أرادها الله لتكون فترة أمان وواحة سلام ؛ فتخالفوا عن إرادة الله .

وفى هذه المخالفة ظلم للأنفس بتعريضها لعذاب الله فى الآخرة ، وتعريضها للخوف والقلق فى الأرض ، حين تستحيل كلها جحيماً حربية، لا هدنة فيها ولا سلام .

ويأمرهم بقتال المشركين كافة كما يقاتلونهم كذلك فى غير الأشهر الحرم ، ما لم يبدأ المشركون بالقتال فيتعين رد الاعتداء فى تلك الأشهر ؛ لأن القتال من جانب واحد يضعف القوة الخيرة ، المنوط بها حفظ الحرمات ، ووقف القوة الشريرة المعتدية ويشيع الفساد فى الأرض ، والفوضى فى النواميس ، فرد الاعتداء فى هذه الحالة وسيلة لحفظ الأشهر الحُرم،فلا يُعتدى عليها ولا تهان .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ التحذير من أهل الكتاب وموالاتهم ، وبيان أنهم كالمشركين يسعون لإطفاء نور الله .

٢ ـ أن المستقبل للإسلام ، رغم كيد القائدين من الكفار والفاسقين ، فهو وعد الله الأكيد .

٣ ـ التحذير من علماء السوء ، وعُباد الضلال فى كل زمان ومكان .

٤ ـ الإسلام لا يحارب الادخار ، بل يدعوا إليه ولكن علينا أن نخرج زكاة أموالنا وننفق منها فى سبيل الله .

٥ ـ الجزاء من جنس العمل ، فمن كنز مالاً ولم ينفقه فى وجوه الخير ، عُذب به يوم القيامة .

٦ ـ تعظيم حرمة الأشهر الحُرم ، وتحريم القتال فيها إلا إذا اعتدى علينا فيها .

إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ
فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ
لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ
إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ
فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾
إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا
غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ
قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ
يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ
ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا
وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ
وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾

١٩٣

معانى الكلمات :

النسىء: تأخير حرمة الشهر إلى شهر آخر .

ليواطئوا : ليوافقوا .

عدة : عدد .

انفروا : اخرجوا للقتال « فى غزوة تبوك » .

اثاقلتم : تباطأتم وملتم عن الجهاد .

ثانى اثنين : أحد اثنين والآخر أبو بكر الصديق ﷺ

سكينته : هدوء النفس واطمئنانها .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نلتزم بما أمر به الشرع دون تحريم الحلال أو تحليل الحرام .

٢ ـ أن نحذر الكفر والفسق ؛ لأنهما حائل دون هداية الله وتوفيقه .

٣ ـ بيان أهمية الجهاد فى الإسلام ووجوب النفرة فى سبيل الله .

٤ ـ بيان حقارة الدنيا وضآلتها أمام الآخرة .

المحتوى التربوى :

قررت الآيات السابقة أن النصر للمتقين الذين يتقون أن ينتهكوا حرمات الله ، وأن يحلوا ما حرم الله ، وأن يحرفوا نواميس الله ، فلا يقعد المسلمون عن جهاد المشركين كافة ، ولا يتخوفوا من الجهاد الشامل ، فهو جهاد فى سبيل الله يقفون فيه عند حدوده وآدابه ، ويتوجهون به إلى الله يراقبونه فى السر والعلانية ، فلهم النصر ؛ لأن الله معهم ، ومن كان الله معه فهو المنصور بلا جدال .

ثم تأتى آية النسىء وفيها قال مجاهد ﷺ : كان رجل من بنى كنانة يأتى كل عام إلى الموسم على حمار له فيقول : أيها الناس : إنى لا أعاب ولا أخاب ، ولا مرد لما أقول . إنا قد حرمنا المحرم وأخرنا صفر ثم يجىء العام المقبل بعده فيقول مثل مقالته ، ويقول : إنا قد حرمنا صفر وأخرنا المحرم فهو قوله : ﴿ لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ﴾ قال : يعنى الأربعة ، فيحلوا ما حرم الله تأخير هذا الشهر الحرام .

وما يفعلوه هذا إنما هو زيادة فى الكفر ـ كفر مزاولة التشريع إلى جانب كفر الاعتقاد ، ويخدعون بها فيه من تلاعب وتحريف وتأويل ﴿ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ ﴾ فإذا هم يرون السوء حسناً ، ويرون قبح الانحراف جمالاً ، ولا يدركون ما هم فيه من ضلال ولجاج فى الكفر بهذه الأعمال : ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ الذين ستروا قلوبهم عن الهدى ، وستروا دلائل الهدى عن قلوبهم ، فاستحقوا بذلك أن يتركهم الله لما هم فيه من ظلام وضلال .

ثم ينتقل السياق لعتاب المتخلفين والتهديد بعاقبة التثاقل عن الجهاد فى سبيل الله ، والتذكير لهم بما كان من نصر الله لرسوله ، قبل أن يكون معه منهم أحد ، وبقدرته على إعادة هذا النصر بدونهم ، فلا ينالهم عندئذ إلا إثم التخلف والتقصير .

يقول صاحب الظلال : « إن النفرة للجهاد فى سبيل الله انطلاق من قيد الأرض ، وارتفاع على ثقلة اللحم والدم ؛ وتحقيق للمعنى العلوى فى الإنسان ، وتغليب لعنصر الشوق المجنح فى كيانه على عنصر القيد والضرورة ، وتطلع إلى الخلود الممتد ، وخلاص من الفناء المحدود ، وما يحجم ذو عقيدة فى الله عن النفرة للجهاد فى سبيله ، إلا وفى هذه العقيدة دخل ، وفى إيمان صاحبها بها وهن ، لذلك يقول الرسول ﷺ : « من مات ولم يغز ، ولم يحدث نفسه بغزو ، مات على شعبة من شعب النفاق » فالنفاق ـ وهو دخل فى العقيدة يعوقها عن الصحة والكمال ـ هو الذى يقعد بمن يزعم أنه على عقيدة عن الجهاد فى سبيل الله ـ خشية الموت أو الفقر، والآجال بيد الله ، والرزق من عند الله وما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل .

ومن ثم يتوجه الخطاب إليهم بالتهديد : بالعذاب ـ عذاب الذلة ـ التى تصيب القاعدين عن الجهاد والكفاح والغلبة عليهم للأعداء ، والحرمان من الخيرات واستغلالها للمعادين وهم مع ذلك كله يخسرون من النفوس والأموال أضعاف ما يخسرون فى الكفاح فى الجهاد ؛ ويقدمون على مذابح الذل أضعاف ما تتطلبه منهم الكرامة لو قدموا لها الفداء . وما من أمة تركت الجهاد وإلا ضرب الله عليها الذل ، فدفعت مرغمة صاغرة لأعدائها أضعاف ما كان يتطلبه منها كفاح الأعداء .. » .

﴿ وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ يقومون على العقيدة ، ويؤدون ثمن العزة ، ويستعلون على أعداء الله ولا يقام وزن للقاعدين ولا يقدمون ولا يؤخرون فى الحساب ولا يعجز الله شيئًا أن يذهب بكم ؛ ويضرب الله لهم المثل من الواقع التاريخى الذى يعلمونه ، على نصره الله لرسوله بلا عون منهم ولا ولاء ، والنصر من عند الله يؤتيه من يشاء .

ذلك حين ضاقت قريش رسول الله ﷺ ذرعاً، كما تضيق القوة الغاشمة ـ دائماً ـ بكلمة الحق، لا تملك لها دفعًا ولا تطيق عليها صبرًا ، فائتمرت به ، وقررت أن تتخلص منه فأطلعه الله على ما ائتمرت ، وأوحى إليه بالخروج ، فخرج وحيدًا إلا من صاحبه الصدّيق ، لا جيش ولا عدة ، وأعداؤه كثر ، وقوتهم إلى قوته ظاهرة .

والقوم على إثرهما يتعقبون ، والصديق ﷺ يجزع ـ لا على نفسه ولكن على صاحبه ـ أن يطلعوا عليهما فيخلصوا إلى صاحبه الحبيب ، يقول له : لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه والرسول ﷺ وقد أنزل الله سكينته على ـ قلبه ـ يهدئ من روعه ويطمئن من قلبه فيقول له : « يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟ »

ثم ماذا كانت العاقبة ، والقوة المادية كلها فى جانب ، والرسول ﷺ مع صاحبه منها كان مجرداً منها ؟ وكان النصر المؤزر من عند الله بجنود لم يرها الناس ، وكانت الهزيمة للذين كفروا والذل والصغار .

فى قوله تعالى : ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ ﴾ تنبيه لمن يستثقل الجهاد ويقعد عن نصرة الله ورسوله ، وتوجيه لمن يخشى قلة العدد فالله نصر رسوله وصاحبه وحولهما جمعٌ غفير من المشركين وهما محصوران ؛ بل وأنزل جنودًا تقيهما سطوة وبأس المشركين .

يقول صاحب المنار : « ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ ﴾ سمى أتباع الرسول أصحابًا تواضعًا من رسول الله ﷺ وتربية لهم على احترام جميع أفراد الأمة ومعاملتهم بالعدل والمساواة » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ حرمة الاحتيال على الشرع بالفتاوى الباطلة لإحلال الحرام ، وأن هذا الاحتيال ما هو إلا زيادة فى الإثم .

٢ ـ حرمان أهل الكفر والفسق من هداية الله ـ تعالى ـ وتوفيقه لما هو حق وخير حالاً ومالاً .

٣ ـ وجوب الخروج إلى الجهاد إذا دعا الإمام بالدعوة العامة ، وهو ما يعرف بالتعبئة العامة أو النفير العام .

٤ ـ وجوب نصرة رسول الله فى دينه وفى أمته وفى سنته .

انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ
فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾
لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ
عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا
مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾
عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ
صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ
يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ
وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ
لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ
فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ
لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ
وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم
مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ
ٱلْفِتْنَةَ ۖ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾
١٩٤

معانى الكلمات :

خفافاً وثقالاً : على أية حالة كنتم .

عرضًا قريبًا : مغنمًا سهل المأخذ .

سفراً قاصداً : وسطاً بين القريب والبعيد .

الشقة : المسافة التى تقطع بمشقة .

ارتابت : شكت .

يترددون : يتحيرون .

فثبطهم : فحبسهم وعوقهم عن الخروج معكم .

خبالاً : شرًا وفسادًا .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعرف فضيلة الإيمان والتقوى فى تنمية روح الجهاد .

٢ ـ أن نحذر إشاعات الأعداء وقت السلم والحرب .

٣ ـ أن نعلم صفات المنافقين كما وردت بالآيات ؛ لنحذرها ونحذرهم ونؤمن الصف من شرورهم .

المحتوى التربوى :

فى هذه الآيات وبعد أن وضع الله موازينه للنصر والغلبة ، وجعل كلمته هى العليا يدعو الفئة المؤمنة إلى النفرة العامة ، لا يعوقهم معوق ، ولا يقعد بهم طارئ إن كانوا يريدون لأنفسهم الخير فى هذه الأرض وفى الدار الآخرة ؛ فطلب منهم أن ينفروا فى كل حال ، ويجاهدوا بالنفوس والأموال وألا يتلمسوا الحجج والمعاذير ، وألا يخضعوا للعوائق والتعللات .

وأدرك المؤمنون المخلصون هذا الخير ، فنفروا والعوائق فى طريقهم ، والأعذار حاضرة لو أرادوا التمسك بالأعذار، ففتح الله عليهم القلوب والأرضين ، وأعزّ بهم كلمة الله ، وأعزهم بكلمة الله وحقق على أيديهم ما يُعد خارقة فى تاريخ الفتوح .

قرأ أبو طلحة ﷺ سورة براءة فأتى على هذه الآية فقال : أرى ربنا استنفرنا ـ شيوخًا وشبابًا ، جهزونى يا بنى فقال بنوه : يرحمك الله قد غزوت مع رسول الله ﷺ حتى مات ، ومع أبى بكر حتى مات ، ومع عمر حتى مات ، فنحن نغزو عنك ، فأبى فركب البحر فمات ، فلم يجدوا له جزيرة يدفنونه فيها إلا بعد تسعة أيام فلم يتغير فدفنوه بها.

يقول صاحب الظلال : « وبمثل هذا الجد فى أخذ كلمات الله انطلق الإسلام فى الأرض ، يخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، وتمت تلك الخارقة فى تلك الفتوح التحريرية الفريدة .

ثم ينتقل السياق ليتحدث عن الطوائف التى ظهرت عليها أعراض الضعف فى الصف ـ وبخاصة جماعة المنافقين ، الذين اندسوا فى صفوف المسلمين باسم الإسلام ، بعد أن غلب وظهر ، فرأى هؤلاء أن حب السلامة وحب الكسب يقتضيان أن يحنوا رؤوسهم للإسلام ، وأن يكيدوا له داخل الصفوف بعد أن عز عليهم أن يكيدوا له خارج الصفوف .ويصور القرآن حالهم قائلاً: لو كان الأمر أمر عرض قريب من أعراض هذه الأرض ، وأمر سفر قصير الأمد مأمون العاقبة لاتبعوك ! ولكنها الشقة البعيدة التى تتقاصر دونها الهمم الساقطة والعزائم الضعيفة، ولكنه الجهد الحظر الذى تجزع منه الأرواح الهزيلة والقلوب المنخوبة . ولكنه الأفق العالى الذى تتخاذل دونه النفوس الصغيرة والبنية المهزولة .

ثم صرف الله ـ تعالى ـ الخطاب عن المتخلفين ، ووجّه إلى رسول الله ﷺ معدّداً لما صدر عنهم من الهنات قولاً وفعلاً ، مبيناً لدناءة هممهم فى هذا الخطب ، قال ـ تعالى ـ لنبيه ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ ؛ وهو الكذب المصاحب للضعف أبداً ، وما يكذب إلا الضعفاء، وبهذا الحلف وبهذا الكذب ، الذى يخيل إليهم أنه سبيل النجاة عند الناس، والله يعلم الحق ، ويكشفه للناس ، فيهلك الكاذب فى الدنيا بكذبه ، ويهلك فى الآخرة يوم لا يجدى النكران .

ثم يتلطف الله ـ عز وجل ـ برسوله ﷺ ، فهو يعجل له بالعفو قبل العتاب ، فلقد تدارى المتخلفون خلف إذن الرسول ﷺ لهم بالقعود حين قدموا له المعاذير وقبل أن ينكشف صدقهم من كذبهم فى هذه المعاذير ، وكانوا سيتخلفون عن الركب حتى ولو لم يأذن لهم ، فعندئذ تتكشف حقيقتهم ، ويسقط عنهم ثوب النفاق ، ويظهرون للناس على طبيعتهم ، ولا يتوارون خلف إذن الرسول .

وإذا لم يكن ذلك فإن القرآن يتولى كشفهم، ويقرر القواعد التى يمتاز بها المؤمنون والمنافقون. فالذين يؤمنون بالله ، ويعتقدون بيوم الجزاء ، لا ينتظرون أن يؤذن لهم فى أداء فريضة الجهاد ، ولا يتلكؤون فى تلبية داعى النفرة فى سبيل الله بالأموال والأرواح ، بل يسارعون إليها خفافاً وثقالاً كما أمرهم الله ، طاعة لأمره ، ويقيناً بلقائه ، وثقة . بجزائه ، وابتغاء لرضاه ، وإنهم

ليتطوعون تطوعاً فلا يحتاجون إلى من يستحثهم ـ فضلاً عن الإذن لهم . إنما يستأذن أولئك الذين خلت قلوبهم من اليقين فهم يتلكؤون ويتلمسون المعاذير ، لعل عائقاً من العوائق يحول بينهم وبين النهوض بتكاليف العقيدة التى يتظاهرون بها ، وهم يرتابون فيها ويترددون .

ولقد كان أولئك المتخلفون ذوى قدرة على الخروج ، لديهم وسائله ، وعندهم عدته ، وقد كان فيهم عبد الله بن أبى ابن سلول ، وكان فيهم الجد بن قيس وكانوا أشرافاً فى قومهم أثرياء ﴿ وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ ﴾ لما يعلمه من طبيعتهم ونفاقهم ، ونواياهم المنطوية على السوء للمسلمين كما سيجىء .

﴿ فَثَبَّطَهُمۡ ﴾ ولم يبعث فيهم الهمة للخروج ، وتخلفوا مع العجائز والنساء والأطفال الذين لا يستطيعون الغزو ، ولا ينبعثون للجهاد وهذا مكانهم اللائق بالهمم الساقطة والقلوب المرتابة والنفوس الخاوية ؛ وكان ذلك خيرًا للدعوة وخيرًا للمسلمين ؛ لأن القلوب الحائرة تبعث الخور والضعف فى الصفوف ، والنفوس الخائنة خطر على الجيوش ؛ ولو خرج أولئك المنافقون ما زادوا المسلمين قوة بخروجهم بل لزادوهم اضطراباً وفوضى ؛ ولأسرعوا بينهم بالوقيعة والفتنة والتفرقة والتخذيل ، وفى المسلمين من يسمع لهم فى ذلك الحين . ولكن الله الذى يرعى دعوته ويكلأ رجالها المخلصين ، كفى المؤمنين الفتنة ، فترك المنافقين المتخاذلين قاعدين .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ مشروعية الحرب الاجتماعية التى تحشد لها جميع القوى والقدرات والإمكانات البشرية والمادية عندما تستلزم الضرورة ذلك ، كما حدث فى غزوة «تبوك» .

٢ ـ المنافقون فى كل زمان ومكان يريدون المغنم السهل ، ويحدثون الفتنة لتفرقة الصف وتمزيق الشمل .

٣ ـ عدم الاستماع إلى إذاعات الأعداء الكاذبة وما يشيعونه من أمن أو خوف لا فى سلم ولا فى حرب .

٤ ـ فضيلة الإيمان والتقوى إذ صاحبها لا يمكنه أن يتخلف عن الجهاد بالنفس والمال .

٥ ـ خطر الشك فى العقيدة وأنه سبب الحيرة والتردد ، وصاحبه لا يقدر على الجهاد لا بالمال ولا بالنفس .

٦ ـ سوابق الشر تحول بين صاحبها وبين فعل الخير .

٧ ـ تدبير الله ـ تعالى ـ لأوليائه خير تدبير ، فلذا وجب الرضا بقضاء الله وقدره والتسليم به .

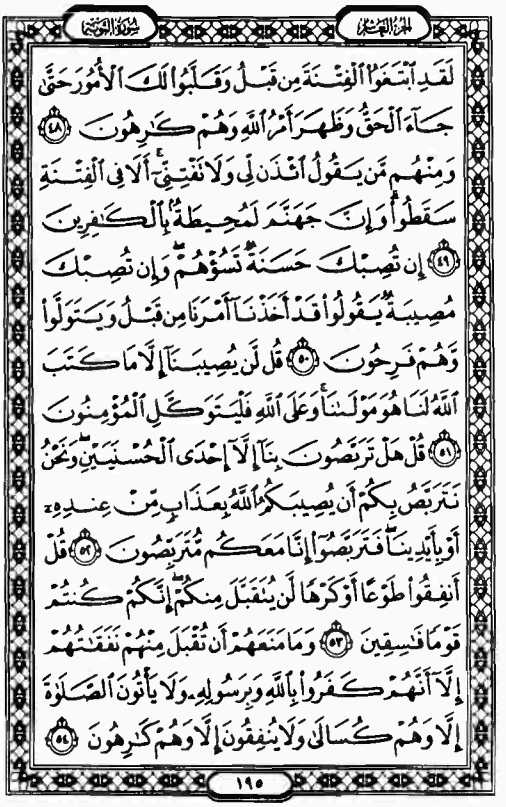
لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ
جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾
وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ
سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ
﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ
مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟
وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ
ٱللَّهُ لَنَا ۚ هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ
﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ
نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ
أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ
أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ
قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ
إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ
إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾
١٩٥

معانى الكلمات :

قلبوا لك الأمور : دبروا لك الحيل والمكايد .

ولا تفتنى : ولا توقعنى فى الإثم .

قد أخذنا أمرنا من قبل : قد احتطنا لأنفسنا من قبل .

مولانا : ناصرنا ومتولى أمورنا .

هل تربصون بنا : ما تنتظرون بنا .

الحسنيين : النصر أو الشهادة .

كرهاً : مكرهين .

كسالى : متثاقلون .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان حقيقة المنافقين ووجوب الحذر منهم .

٢ ـ أن نعتقد اعتقاداً جازماً بأنه لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا .

٣ ـ أن نحسن إخراج الصدقات ونقصد بالإنفاق وجه الله ـ تعالى .

٤ ـ أن نقوم إلى الصلاة متى سمعنا النداء دون تهاون أو تكاسل .

المحتوى التربوى :

يواصل السياق فضح وكشف المنافقين وإن ماضيهم ليشهد بدخل نفوسهم،وسوء طويتهم ، فلقد وقفوا فى وجه الرسول ﷺ وبذلوا ما فى طوقهم ، حتى غلبوا على أمرهم فاستسلموا وفى القلب ما فيه ، لذا وصفهم الله ـ عز وجل : ﴿ لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ ﴾ وكان ذلك عند مقدم الرسول ﷺ إلى المدينة ، قبل أن يظهره الله على أعدائه ، ثم جاء الحق وانتصرت كلمة الله ، فحنوا لها رؤوسهم وهم كارهون ، وظلوا يتربصون الدوائر بالإسلام والمسلمين .

ثم يأخذ السياق فى عرض نماذج منهم ومن معاذيرهم المفتراة ؛ ثم يكشف عما تنطوى عليه صدورهم من التربص بالرسول ﷺ والمسلمين ، ومنهم الجد بن قيس الذى قال للرسول ﷺ : أو ائذن لى ولا تفتنى ؟ فوالله لقد عرف قومى ما رجل أشد عجبًا بالنساء منى ، وإنى أخشى إن رأيت نساء بنى الأصفر ألا أصبر عنهن ، فأعرض عنه رسوله الله ﷺ وقال : قد أذنت لك « بمثل هذه المعاذير كان المنافقون يعتذرون والرد عليهم» : ﴿ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ .

ويصفهم القرآن بأنهم لا يريدون بالرسول خيرًا ولا بالمسلمين ، وإنهم ليسوؤهم أن يجد الرسول والمسلمون خيرًا، وإنهم ليفرحون لما يحل بالمسلمين من مصائب وما ينزل بهم من مشقة ﴿ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴾ بالنجاة وبما أصاب المسلمين من بلاء .

والله قد كتب للمؤمنين النصرة ووعدهم به فى النهاية ، فمهما يصبهم من شدة ، ومهما يلاقوا من ابتلاء ، فهو إعداد للنصر الموعود ؛ لينالوه المؤمنون عن بينة ، وبعد تمحيص ، وبوسائله التى اقتضتها سنة الله ، نصرًا عزيزًا لا رخيصًا ، وعزة تحميها نفوس عزيزة مستعدة لكل ابتلاء ، صابرة على كل تضحية ، والله هو الناصر وهو المعين .

والاعتقاد بقدر الله ، والتوكل الكامل على الله ، لا ينفيان اتخاذ العدة بما فى الطوق فذلك أمر الله الصريح ﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ (الأنفال : ٦٠) ومن يتكل على الله حق الاتكال من لا ينفذ أمر الله ، ومن لا يأخذ بالأسباب ، ومن لا يدرك سنة الله الجارية التى لا تحابى أحداً ، ولا تراعى خاطر إنسان !

على أن المؤمن أمره كله خير . سواء نال النصر أو نال الشهادة . والكافر أمره كله شر سواء أصابه عذاب الله المباشر أو على أيدى المؤمنين .

يقول صاحب الظلال : فماذا يتربص المنافقون بالمؤمنين ؟ إنها الحسنى على كل حال النصر الذى تعلو به كلمة الله ، فهو جزاؤهم فى هذه الأرض ، أو الشهادة فى سبيل الحق عليا الدرجات عند الله . وماذا يتربص المؤمنون بالمنافقين ؟ إنه عذاب الله يأخذهم كما أخذ من قبلهم من المكذبين؛ أو يبطش المؤمنون بهم كما وقع من قبل للمشركين ﴿ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴾ والعاقبة معروفة ، والعاقبة للمتقين .

ولقد كان بعض هؤلاء المعتذرين المتخلفين المتربصين ، قد عرض ماله ، وهو يعتذر عن الجهاد ؛ ذلك ليمسك العصا من الوسط على طريقة المنافقين فى كل زمان ومكان ، فرد الله عليهم مناورتهم ، وكلف رسوله أن يعلن أن إنفاقهم غير مقبول عند الله ؛ لأنهم إنما ينفقون عن رياء

وخوف ، لا عن إيمان وثقة ، وسواء بذلوه عن رضا منهم بوصفه ذريعة يخدعون بها المسلمين ، أو عن كره خوفًا من انكشاف أمرهم ، فهو فى الحالتين مردود ، لا ثواب له ولا يحسب لهم عند الله .

إنها صورة المنافقين فى كل آن ، خوف ومداراة ، وقلب منحرف وضمير مدخول، ومظاهر خالية من الروح ، وتظاهر بغير ما يكنه الضمير .

ويقول صاحب الظلال فى قوله تعالى فى وصف المنافقين : ﴿ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ ﴾ : فهم يأتونها مظهراً بلا حقيقة ، ولا يقيمونها إقامة واستقامة ؛ يأتونها كسالى لأن الباعث عليها لا ينبثق من أعماق الضمير ، إنما يدفعون إليها دفعًا ، فيحسون أنهم عليها مسخرون ! وكذلك ينفقون ما ينفقون كارهين مكرهين ، وما كان الله ليقبل هذه الحركات الظاهرة التى لا تحدو إليها العقيدة ، ولا يصاحبها شعور دافع ، فالباعث هو عمدة العمل ، والنية هى مقياسه الصحيح .

ويواصل صاحب الظلال قوله : ولقد كان هؤلاء المنفقون وهم كارهون ذوى مال وذوى أولاد ، وذوى جاه فى قومهم وشرف ، ولكن هذا كله ليس بشىء عند الله ، وكذلك يجب ألا يكون شيئًا عند الرسول والمؤمنين . فما هى بنعمة يسبغها الله عليهم ليهنؤوا بها ، إنما هى فتنة يسوقها الله إليهم ويعذبهم بها .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ المنافقون أشد خطرًا على المسلمين من الكافرين ؛ لأنهم يدبرون المكائد فى الخفاء للمسلمين .

٢ ـ كل ما يصيبنا من خير أو شر ، أو خوف أو رجاء ، أو شدة أو رخاء مُقدر علينا ، مكتوب عند الله ـ تعالى ـ والله هو ناصرنا وحافظنا ، فلنفوض الأمر إليه ـ دائماً ، ولنحسن التوكل عليه .

٣ ـ الله ـ تعالى ـ طيب لا يقبل من الصدقات والنفقات إلا ما كان طيبا ، وما أُنفق عن إيمان وإخلاص لله.

٤ ـ بيان أن المؤمنين بين خيارين فى جهادهم : النصر أو الشهادة .

٥ ـ مشروعية القول الذى يغيظ العدو ويحزنه .

٦ ـ حرمة التكاسل عن الصلاة وأن ذلك من صفات المنافقين .

فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم
بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾
وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ
قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٨٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ
أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٨٧﴾ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ
فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا
هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ
وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ
وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٨٩﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ
لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ
وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ
فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٠﴾ وَمِنْهُمُ
ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ
لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩١﴾
١٩٦

معانى الكلمات :

تزهق أنفسهم : تخرج أرواحهم .

يفرقون : يخافون منكم فينافقونكم .

يجمحون : يسرعون فى الدخول فيه .

يلمزك : يعيبك ويطعن عليك .

فى الرقاب : فى عتق الأرقاء والأسرى .

الغارمين : المدينين الذين لا يجدون ما يسدون به ديونهم .

فى سبيل الله : فى الغزو والجهاد .

ابن السبيل : المسافر المنقطع عن ماله .

هو أذن : يسمع كل ما يقال له ويصدقه .

أذن خير لكم:يسمع الخير ولا يسمع الشر.

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان صفات المنافقين ، وعدم الاغترار بهم ولا بأموالهم فإنها فتنة .

٢ ـ أن نعرف الآداب التى ينبغى أن نتخلق بها مع الله ورسوله وتشريعه .

٣ ـ بيان فرضية الزكاة ومعرفة مصارفها الشرعية .

المحتوى التربوى :

فى هذه الآيات يصحح المولى ـ عز وجل ـ المفاهيم للفئة المؤمنة فى نظرتهم لهؤلاء المنافقين، فلقد كانوا ذوى مال وذوى أولاد ، وذوى جاه فى قومهم وشرف ، ولكن هذا كله ليس بشىء عند الله ، وكذلك يجب ألا يكون شيئاً عند الرسول والمؤمنين . فما هى بنعمة يسبغها الله عليهم ليهنؤوا بها ، إنما هى الفتنة يسوقها الله إليهم ويعذبهم بها .

ويقول صاحب الظلال:« إن الأموال والأولاد قد تكون نعمة يسبغها الله على عبد من عباده، حين يوفقه إلى الشكر على النعمة ، والإصلاح بها فى الأرض ، والتوجه بها إلى الله فإذا هو مطمئن الضمير ، ساكن النفس ، واثق من المصير ، كلما أنفق احتسب وشعر أنه قدم لنفسه ذخراً ، وكلما أصيب فى ماله أو بنيه احتسب ، فإذا السكينة النفسية تغمره ، والأمل فى الله يسرى عنه .

وقد تكون نقمة يصيب الله بها عبدًا من عباده ؛ لأنه يعلم من أمره الفساد والدخل ، فإذا القلق على الأموال والأولاد يحول حياته جحيمًا ، وإذا الحرص عليها يؤرقه ويتلف أعصابه ، وإذا هو ينفق المال حين ينفقه فيما يتلفه ويعود عليه بالأذى ، وإذا هو يشقى بأبنائه إذا مرضوا ويشقى بهم إذا صحوا . وكم من الناس يعذبون بأبنائهم لسبب من الأسباب !

وهؤلاء الذين كانوا على عهد الرسول ﷺ وأمثالهم فى كل زمان ، يملكون الأموال ويرزقون الأولاد ، يعجب الناس ظاهرها ، وهى لهم عذاب على نحو من الأنحاء . عذاب فى الحياة الدنيا وهم ـ بما علم الله من دخيلتهم ـ صائرون إلى الهاوية . هاوية الموت على الكفر ـ والعياذ بالله من هذا المصير .

ويتحدث السياق فاضحاً هؤلاء المنافقين الذين كانوا يدسون أنفسهم فى الصف المسلم ، لا عن إيمان واعتقاد ، ولكن عن خوف وتقية ، وعن طمع ورهب ، ثم يحلفون أنهم من المسلمين ، أسلموا اقتناعًا ، وآمنوا اعتقادًا ، فهذه السورة تفضحهم وتكشفهم على حقيقتهم ، فهى الفاضحة التى تكشف رداء المداراة وتمزق ثوب النفاق .

وهم كذلك جبناء متطلعون ـ دائماً ـ إلى مخبأ يحتمون به ، ويأمنون فيه ، فهم لا يحبون النور إنهم مذعورون مطاردون يطاردهم الفزع الداخلى والجبن الروحى .

ومنهم من يلمز النبى ﷺ فى توزيع الصدقات ، ويتهم عدالته فى التوزيع ؛ وهو المعصوم ذو الخلق العظيم ، ومنهم من يقول : هو أذن يستمع لكل قائل ، ويصدق كل ما يقال ، وهو النبى الفطن البصير المفكر .

ومنهم من يتخفى بالقولة الكافرة الفاجرة ، حتى إذا انكشف أمره استعان بالكذب والحلف ليبرئ نفسه من تبعة ما قال ، ومنهم من يخشى أن ينزل الله على رسوله سورة تفضح نفاقهم وتكشفهم للمسلمين .

وهؤلاء المنافقون الذين يلمزون الرسول ﷺ بالقول ، ويعيبون عدالته فى توزيع الصدقات ، ويدعون أنه ﷺ يحابى فى قسمتها . هم لا يقولون ذلك غضبًا للعدل ، ولا حماسة للحق ، ولا غيرة على الدين ، إنما يقولونه لحساب ذواتهم وأطماعهم ، وحماسة لمنفعتهم وأنانيتهم : ﴿ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ ﴾ ولم يبالوا بالحق والعدل والدين ﴿ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ !

وبمناسبة هذه الأخلاق السيئة التى يبوء بها المنافقون يرسم السياق الطريق اللائق بالمؤمنين الصادقين ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾ .

ويقول صاحب الظلال : فهذا هو أدب النفس وأدب اللسان وأدب الإيمان : الرضا بقسمة الله ورسوله ، رضا التسليم والاقتناع لا رضا القهر والغلب ، والاكتفاء بالله ، والله كاف عبده . والرجاء فى فضل الله ورسوله والرغبة فى الله خالصة من كل كسب مادى ومن كل طمع دنيوى . ذلك أدب الإيمان الصحيح الذى ينضح به قلب المؤمن . وإن كانت لا تعرفه قلوب المنافقين ، الذين لم تخالط بشاشة الإيمان أرواحهم ، ولم يشرق فى قلوبهم نور اليقين .

وبعد بيان هذا الأدب اللائق فى حق الله وحق رسوله ـ تطوعاً ورضا وإسلامًا ـ يقرر أن الأمر ـ مع ذلك ـ ليس أمر الرسول ، إنما هو أمر الله وفريضته وقسمته ، وما الرسول فيها إلا منفذ الفريضة المقسومة من رب العالمين ، فهذه الصدقات ـ أى الزكاة ـ تؤخذ من الأغنياء فريضة من الله ، وترد على الفقراء فريضة من الله . وهى محصورة فى طوائف من الناس يعينهم القرآن ، وليست متروكة لاختيار أحد ، حتى ولا اختيار الرسول .

وبذلك تأخذ الزكاة مكانها فى شريعة الله ، ومكانها فى النظام الإسلامى ، لا تطوعًا ولا تفضلاً ممن فرضت عليهم . فهى فريضة محتمة ، ولا منحة ولا جزافاً من القاسم الموزع ، فهى فريضة معلومة . إنها إحدى فرائض الإسلام تجمعها الدولة المسلمة بنظام معين لتؤدى بها خدمة اجتماعية محددة ، وهى ليست إحساناً من المعطى ، وليست شحاذة من الآخذ ، كلا فما قام النظام الاجتماعى فى الإسلام على التسول ، ولن يقوم !

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ يتصف المنافقون بأخس الصفات ، ولا يجوز الإعجاب بما عندهم من مال أو أولاد ، فإنما هى فتنة واستدراج لهم إلى عذاب الله .

٢ ـ من صفات المنافقين عدم تحمل المسؤولّية ، والطعن فى الدين ، وفى شخصية الرسول ﷺ وتصرفات القيادة ، والفرح بالغنائم إن أخذوا منها نصيباً وافراً ، وعدم التسليم لله أو الرغبة فى ثوابه .

٣ ـ مصارف الزكاة ثمانية لا يجوز صرفها فى غير تلك المصارف ، كما لا يجوز منع صنف من هذه الأصناف إذا وجد .

٤ ـ ذم الصالحين والطعن فيهم ظاهرة دالة على فساد القلوب والنيات .

٥ ـ وعيد الله الشديد فى الدنيا والآخرة لمن يؤذى الرسول ﷺ أو يسىء إليه بأى شكل من الأشكال ، حال حياته وبعد مماته .

يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ
أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ
مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ۚ
ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ
أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ اسْتَهْزِئُوا ۖ
إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ
لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ
وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم
بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً
بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ
بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ
عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۚ
إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ اللَّهُ
الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ
فِيهَا ۚ هِيَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾
١٩٧

معانى الكلمات :

من يحادد الله : من يخالفه ويعاديه .

تنبئهم : تخبرهم .

مُخْرِجُ : مظهر ومبرز .

نخوض ونلعب : نتلهى بالحديث .

يقبضون أيديهم : يبخلون فلا يبسطون أيديهم فى خير وطاعة .

فنسيهم : فلم يوفقهم ولم يهدهم .

هى حسبهم : هى كافيتهم عقاباً على كفرهم .

مقيم : دائم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نخالف المنافقين فى سلوكهم ونحذرهم ولا نواليهم فإن بعضهم من بعض .

٢ ـ أن نعلم أن الأمر بالمنكر والنهى عن المعروف من علامات المنافقين والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من سيماء المؤمنين .

٣ ـ أن نقصد بكل أقوالنا وأعمالنا وجه الله ـ عز وجل ـ ورضاه فالمنافقون يعملون رئاء الناس

المحتوى التربوى :

يواصل السياق فضحه للمنافقين فهم يحلفون بالله للمؤمنين ليرضوهم ، على طريقة المنافقين فى كل زمان ، الذين يقولون ما يقولون ويفعلون ما يفعلون من وراء الظهور ؛ ثم يجنبون عن المواجهة ، ويضعفون عن المصارحة ، فيتضاءلون ويتخاذلون للناس ليرضوهم ﴿ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ .

فماذا يكون الناس ؟ وماذا تبلغ قوتهم ؟ ولكن الذى لا يؤمن بالله عادة ولا يعنو له ، يعنو لإنسان مثله ويخشاه ؛ ولقد كان خيرًا أن يعنو لله الذى يتساوى أمامه الجميع ، ولا يذل من يخضع له ، إنما يذل من يخضع لعباده ، ولا يصغر من يخشاه ، إنما يصغر من يعرضون عنه فيخشون من دونه من عباد الله .

إنهم يخشون عباد الله فيحلفون لهم ليرضوهم ، ولينفوا ما بلغهم عنهم . فكيف لا يخشون خالق العباد ، وهم يؤذون رسوله ، ويحاربون دينه ، فإنما يحاربون الله ، تعالى الله أن يقصده أحدٌ بحرب ! إنما هو تفظيع ما يرتكبون من إثم ، وتجسيم ما يقارفون من خطيئة ، وتخويف من يؤذون رسول الله ، ويكيدون لدينه فى الخفاء .

وإنهم لأجبن من أن يواجهوا الرسول ﷺ والذين معه ، وإنهم ليخشون أن يكشف الله سترهم وأن يطلع رسول الله ﷺ على علة نواياهم ، ويحذر القرآن المنافقين أن ينزل الله قرآنا يكشف خبيئتهم ، ويتحدث عما فى قلوبهم ، فينكشف للناس ما يخبئونه .

وقد وردت عدة روايات عن حوادث معينة فى سبب نزول هذه الآيات منها : ما أخرجه ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة قال : « بينما رسول الله ﷺ فى غزوته إلى تبوك ، وبين يديه أناس من المنافقين فقالوا : أيرجو هذا الرجل أن يفتح له قصور الشام وحصونها ؟ هيهات هيهات . فأطلع الله نبيه ﷺ على ذلك . فقال النبى ﷺ :» واحسبوا علىَّ هؤلاء الركب » فأتاهم فقال : قلتم كذا قلتم كذا. قالوا : يانبى الله إنما كنا نخوض ونلعب ، فأنزل الله فيهم ما تسمعون .

يقول صاحب **الظلال** : « إنما كنا نخوض ونلعب ، كأن هذه المسائل الكبرى التى يتصدون لها ، وهى ذات صلة وثيقة بأصل العقيدة كأن هذه المسائل مما يخاض فيه ويلعب : ﴿ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾ .

لذلك ، لعظم الجريمة ، يجبههم بأنهم قالوا كلمة الكفر ، وكفروا بعد إيمانهم الذى أظهروه ، وينذرهم بالعذاب ، الذى إن تخلف عن بعضهم لمسارعته إلى التوبة وإلى الإيمان الصحيح ، فإنه لن يُصرف عن بعضهم الذى ظل على نفاقه واستهزائه بآيات الله ورسوله ، وبعقيدته ودينه .

وعندما يصل السياق إلى هذا الحد من استعراض تلك النماذج من أقوال المنافقين وأعمالهم وتصوراتهم ، يعمد إلى تقرير حقيقة المنافقين بصفة عامة ، وعرض الصفات الرئيسية التى تميزهم عن المؤمنين الصادقين وتحديد العذاب الذى ينتظرهم أجمعين .

فهم من طينة وطبيعة واحدة وكل أفعالهم فى كل زمان ومكان تنبع من معين واحد . سوء الطوية ولؤم السريرة ، والغمز والدس ، والضعف عن المواجهة ، والجبن عن المصارحة . تلك سماتهم الأصيلة ، أما سلوكهم فهو الأمر بالمنكر والنهى عن المعروف والبخل بالمال إلا أن يبذلوه

رئاء الناس ، إنهم ﴿ نَسُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ فلا يحسبون إلا حساب الناس وحساب المصلحة ، ولا يخشون إلا الأقوياء من الناس يذلون لهم ويداورنهم ﴿ فَنَسِيَهُمْ ﴾ الله فلا وزن ولا اعتبار لهم ، وإنهم لكذلك فى الدنيا بين الناس ، وإنهم لكذلك فى الآخرة عند الله ، ما يحسب الناس حساباً إلا للرجال الأقوياء الصرحاء ، الذين يجهرون بآرائهم ، ويقفون خلف عقائدهم ؛ ويواجهون الدنيا بأفكارهم ، ويحاربون أو يسالمون فى وضح النهار ، أولئك ينسون الناس ليذكروا إله الناس ، فلا يخشون فى الحق لومة لائم ، وأولئك يذكرهم الله فيذكرهم الناس ويحسبون حسابهم .

وهم بوصفهم هذا فاسقون خارجون عن الإيمان ، منحرفون عن الطريق ، وقد وعدهم الله مصيراً كمصير الكفار : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ﴾ وفيها كفايتهم وهى كفاء إجرامهم وهم كذلك مطرودون من رحمة الله ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ .

قال القاسمى : قال الشهاب : ﴿ نَسُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ أنهم لا يذكرونه ولا يطيعونه ؛ لأن الذكر له مستلزم لإطاعته ، فجعل النسيان مجازاً عن الترك ، وهو كناية عن ترك الطاعة ، ونسيان الله منع لطفه وفضله عنهم . وقال النحرير : جعل النسيان مجازاً لاستحالة حقيقته عليه ـ تعالى ، وامتناع المؤاخذة على نسيان البشر .

ويقول صاحب الأساس بمناسبة قوله ـ تعالى: ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ﴾: أى كأنهم نفس واحدة ، وفيه نفى أن يكونوا من المؤمنين ، وتكذيب لهم فى ادّعائهم أنهم من المسلمين، فإذا رأيت إنساناً مستور الحال يوالى منافقاً مكشوف النفاق فاعلم أنه مظنة النفاق .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ المؤمن يعمل ـ دائماً ـ لإرضاء الله ورسوله ، والمنافق يحاول إرضاء الناس ، ولو بالحلف الكاذب ؛ لعدم إيمانه .

٢ ـ كفر من استهزأ بالله أو آياته أو رسوله .

٣ ـ الأمر بالمنكر والنهى عن المعروف علامة النفاق وظاهرة الكفر ، وانتكاس الفطرة .

٤ ـ إذا رأيت إنساناً مستور الحال يوالى منافقاً مكشوف النفاق فاعلم أنه مظنة النفاق .

٥ ـ لا يُقبل اعتذار من كفر بأى وجه وإنما التوبة أو السيف كُفراً .

كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ
أَمْوَٰلًا وَأَوْلَـٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَـٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَـٰقِكُمْ
كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَـٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ
كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا
وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ
نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ
إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَـٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَـٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ
رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن
كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ
أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ
وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ
وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾
وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا
ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ۚ
وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾

معانى الكلمات :

فاستمتعوا بخلاقهم : فتمتعوا بنصيبهم من ملاذ الدنيا .

خضتم : دخلتم فى الباطل .

حبطت أعمالهم: بطلت وذهبت أجورها

المؤتفكات : المنقلبات (قرى لوط) .

أولياء : أصدقاء ونصراء .

بالمعروف : بكل ما استحسنه الشرع وأمر به .

المنكر : كل ما استقبحه الشرع ونهى عنه .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعتبر بمن سبقنا من الأمم التى كذبت رسلهم فحل بهم العذاب .

٢ ـ أن نتعاون على البر والتقوى وكل ما يرضى المولى ـ عز وجل .

٣ ـ أن نؤدى حقوق الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين من النصيحة والتعاون على البر والنصرة .

المحتوى التربوى :

تتحدث الآيات عن أن هذه الطبيعة الفاسقة المنحرفة الضالة للمنافقين ، ليست جديدة ، ففى تاريخ البشرية لها نظائر وأمثال ، ولقد حوى تاريخ البشرية من قبل هؤلاء نماذج كثيرة من هذا الطراز ، ولقد لاقى السابقون مصائر تليق بفسوقهم عن الفطرة المستقيمة والطريق القويمة ، بعدما استمتعوا بنصيبهم المقدر لهم فى هذه الأرض . وكانوا أشد قوة وأكثر أموالاً وأولاداً فلم يغن عنهم من ذلك كله شىء .

والقرآن يذكر القوم بما كان من أسلافهم ، ويبصرهم بأنهم يسلكون طريقهم ، ويحذرهم أن يلاقوا مصيرهم لعلهم يهتدون . **ويتحدث صاحب الظلال** عن هذه الفتنة فيقول : « إنها الفتنة بالقوة ، والفتنة بالأموال والأولاد ، فأما الذين اتصلت قلوبهم بالقوة الكبرى فهم لا يفتنون

بالقوة العارضة التى تخول لهم فى الأرض . لأنهم يخشون من هو أقوى ، فينفقون قوتهم فى طاعته وإعلاء كلمته . وهم لا يفتنون بالأموال والأولاد ؛ لأنهم يذكرون من أنعم عليهم بالأموال والأولاد ، فيحرصون على شكر نعمته ، وتوجيه أموالهم وأولادهم إلى طاعته . وأما الذين انحرفت قلوبهم عن مصدر القوة والنعمة فهم يبطرون ويفجرون فى الأرض، ويتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام .

وكذلك بطلت أعمالهم بطلاناً أساسياً ؛ لأنها كالنبتة بلا جذور ، لا تستقر ولا تنمو ولا تزدهر ، ولذا فهم خسروا كل شىء على وجه الاجمال بلا تحديد ولا تفصيل ، ويتعجب القرآن من هؤلاء الذين يستمتعون غير شاعرين، ويسيرون فى طريق الهلكى ولا يتعظون ..هؤلاء ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ ممن ساروا فى نفس الطريق ؟ ﴿ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ وقد غمرهم الطوفان وطواهم اليم فى تيار الفناء المرهوب ﴿ وَعَادٍ ﴾ وقد أهلكوا بريح صرصر عاتية ، ﴿ وَثَمُودَ ﴾ وقد أخذتهم الصحية ﴿ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ وقد أهلك طاغيتهم المتجبر وأنجى إبراهيم ، ﴿ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ ﴾ وقد أصابتهم الرجفة وخنقتهم الظلة ﴿ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ﴾ قرى قوم لوط وقد قطع الله دابرهم إلا الأقلين .. ألم يأتهم نبأ هؤلاء الذين ﴿ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ فكذبوا بها ، فأخذهم الله بذنوبهم .

يقول صاحب **الظلال** : « إن النفس المنحرفة تبطرها القوة فلا تذكر ، وتعميها النعمة فلا تنظر ، وما تنفع عظات الماضى ولا عبره إلا من تنفتح بصائرهم لإدراك سنة الله التى لا تتخلف ، ولا تتوقف ، ولا تحابى أحداً من الناس ، وإن كثيراً ممن يبتليهم الله بالقوة وبالنعمة لتغشى أبصارهم وبصائرهم غشاوة ، فلا يبصرون مصارع الأقوياء قبلهم ، ولا يستشعرون مصير البغاة الطغاة من الغابرين . عندئذ تحق عليهم كلمة الله ، وعندئذ تجرى فيهم سنة الله ، وعندئذ يأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر .

وهم فى نعمائهم يتقبلون ، وبقوتهم يتخايلون ، والله من ورائهم محيط . إنها الغفلة والعمى والجهالة نراها تصاحب القوة والنعمة والرخاء ، نراها فى كل زمان وفى كل مكان إلا من رحم الله من عباده الصالحين .

وفى مقابل المنافقين والكفار ، يقف المؤمنون الصادقون . طبيعة غير الطبيعة ، وسلوكاً غير السلوك ومصيراً غير المصير فالمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض لكن المنافقين والمنافقات بعضهم من بعض فالولاية تحتاج إلى شجاعة وإلى نجدة وإلى تعاون وإلى تكاليف . وطبيعة النفاق تأبى هذا كله ولو كان بين المنافقين أنفسهم . إن المنافقين أفراد ضعاف مهازيل ، وليسوا جماعة متماسكة قوية متضامنة ، على ما يبدو بينهم من تشابه فى الطبيعة والخلق والسلوك . وإن

طبيعة المؤمن هى طبيعة الأمة المؤمنة . طبيعة الوحدة وطبيعة التكافل والتضامن فى تحقيق الخير ودفع الشر . فهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وهم كذلك ﴿ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ الصلة التى تربطهم بالله . ﴿ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ الفريضة التى تربط بين الجماعة المسلمة وتحقق الصورة المادية والروحية للولاية والتضامن .

يقول صاحب الظلال : « الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من تكاليف الأمة الخيرة ، بكل ما وراء هذه التكاليف من متاعب ، وبكل ما فى طريقها من أشواك ، وكل هذا متعب شاق ، ولكنه كذلك ضرورى لإقامة المجتمع الصالح وصيانته .

وكذلك من صفات المؤمنين التى وردت فى الآيات أنهم « يطيعون الله ورسوله » فلا يكون لهم هوى غير أمر الله وأمر رسوله ، ولا يكون لهم دستور إلا شريعة الله ورسوله ولا يكون لهم منهج إلا دين الله ورسوله ، ولا يكون لهم الخيرة إذا قضى الله ورسوله ، وبذلك يوحدون نهجهم ويوحدون هدفهم ويوحدون طريقتهم ، فلا تتفرق بهم السبل عن الطريق الواحد المستقيم : ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ﴾ والرحمة لا تكون فى الآخرة وحدها ، إنما تكون فى هذه الأرض أولاً ورحمة الله تشمل الفرد الذى ينهض بتكاليف الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، وتشمل الجماعة المكونة من أمثال هذا الفرد الصالح . رحمة الله فى اطمئنان القلب ، وفى الاتصال بالله وفى الرعاية والحماية من الفتن والأحداث ورحمة الله فى صلاح الجماعة وتعاونها وتضامنها واطمئنان كل فرد للحياة واطمئنانه لرضاء الله .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ ضرورة الاعتبار بمن سبق من الأمم الذين كذبوا رسلهم فحل بهم العذاب .

٢ ـ الله ـ تعالى ـ لا يظلم الناس شيئاً ، ولكن هم الذين يظلمون أنفسهم بالكفر وارتكاب المعاصى .

٣ ـ المؤمنون والمؤمنات أخوة فى الدين يتناصرون ويتعاونون ، من أهم صفاتهم التى استحقوا بها رحمة الله وجناته ونعيمه ورضوانه .

أ ـ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

ب ـ أداء الصلاة على الوجه الأكمل .

جـ ـ إعطاء الزكاة إلى مستحقيها ، ابتغاء وجه الله .

د ـ طاعة الله ورسوله فى كل أمر ونهى .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ
وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ
مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ
وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ
مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ
ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ
مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ
ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾
فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ
﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟
ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟
أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ
ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ
ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا
جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾
١٩٩

معانى الكلمات :

أغلظ عليهم : شدد عليهم ولا ترفق بهم .

ما نقموا : ما كرهوا .

لنصدقن : لنتصدقن .

تولوا : أعرضوا عن طاعة الله .

فأعقبهم : فجعل مصيرهم .

نجواه: ما يتحدثون به سراً طعنا فى الدين .

يلمزون : يعيبون .

بجهدهم : طاقتهم ووسعهم .

سخر الله منهم:أهانهم وأذلهم جزاء وفاقاً .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعرف خطر المنافقين على الصف الإسلامى ونحذرهم .

٢ ـ أن نلتزم بأوامر الشرع فى معاملة أهل النفاق .

٣ ـ أن نتحرى صدق النية وإخلاصها فى كل قول وعمل .

المحتوى التربوى :

فى هذه الآيات وبعد أن بين الله ـ عز وجل ـ صفة المؤمنين الصادقين وصفة المنافقين الذين يدّعون الإيمان ، يأمر الله نبيه أن يجاهد الكفار والمنافقين ، ويقرر القرآن الكريم أن هؤلاء قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهموا بأمر خيبهم الله فيه ، وهو من وحى الكفر الذى صاروا إليه . ويعجب من نقمتهم على رسول الله ﷺ وما كان لهم من بعثته إلا الخير والغنى ويرغبهم فى التوبة ويخوفهم التمادى فى الكفر والنفاق .

وفى الأمر بقتال الكفار والمنافقين **يقول صاحب الظلال** : هذه الآية لها معناها وقيمتها فى ضرورة حماية المحضن الذى تتم فيه الوقاية من النار ، فلا تترك هذه العناصر المفسدة التى تهاجم المعسكر الإسلامى وهم الكفار ، أو تهاجمه كما كان المنافقون يفعلون » .

لقد كان الرسول ﷺ لاين المنافقين كثيراً ، وأغضى عنهم كثيراً ، وصفح عنهم كثيراً فها هو ذا يبلغ الحلم غايته ، وتبلغ السماحة أجلها ، ويأمره ربه أن يبدأ معهم خطة جديدة ويلحقهم بالكافرين فى النص ، ويكلفه جهاد هؤلاء وهؤلاء جهاداً عنيفاً غليظاً لا رحمة فيه ولا هوادة .

إن للين مواضعه وللشدة مواضعها . فإذا انتهى أمد اللين فلتكن الشدة ؛ وإذا انقضى عهد المصابرة فليكن الحسم القاطع ، وللحركة مقتضياتها ، وللمنهج مراحله ، واللين فى بعض الأحيان قد يؤذى ، والمطاولة قد تضر .

يقول صاحب الظلال : وقد اختلف فى الجهاد والغلظة على المنافقين ؛ أتكون بالسيف كما روى عن على ـ كرم الله وجهه ـ واختاره ابن جرير ـ رحمه الله ـ أم تكون فى المعاملة والمواجهة وكشف خبيئاتهم للأنظار كما روى عن ابن عباس ﷺ والذى وقع أن رسول الله ﷺ لم يقتل المنافقين .

ويكشف السياق القرآنى خبيئة نفوسهم ودخيلتهم فى همهم بخيانة الرسول ﷺ وقتله ، ثم يعقب على هذا التعجيب من أمرهم بعد كشف خبيئاتهم بالحكم الفاصل ـ فاتحاً لهم باب التوبة على مصراعيه ، فمن شاء لنفسه الخير فليدلف إلى الباب المفتوح ومن أراد أن يمضى فى طريقه الأعوج ، فالعاقبة كذلك معروفة : العذاب الأليم فى الدنيا والآخرة ، وانعدام الناصر المعين فى هذه الأرض ، ولمن شاء أن يختار ، وهو وحده هو الملوم .

فى قوله تعالى : ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ ﴾ توضيح بأن هؤلاء المنافقين كان يحلفون كلما انكشف أمرهم ، **وقد ذكر صاحب الظلال** ذلك فى تفسيره لقوله تعالى : ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً ﴾ (المنافقون : ٢) يقول : « كانوا يحلفون ليتقوا ما يترتب على افتضاح أمر من أمورهم ، فيجعلون أيمانهم وقاية وجنة يحتمون وراءها ليواصلوا كيدهم ودسهم وإغواءهم للمخدوعين فيهم » .

ثم يمضى السياق فى عرض نماذج من المنافقين وأحوالهم وأقوالهم من قبل الغزوة وفى ثناياها. فمن المنافقين من عاهد الله لئن أنعم الله عليه ورزقه ، ليبذلن الصدقة ، وليصلحن العمل ، ولكن هذا العهد إنما كان فى وقت فقره وحسرته . وفى وقت الرجاء والطمع فلما أن استجاب الله له ورزقه من فضله نسى عهده ، وتنكر لوعده ، وأدركه الشح والبخل فقبض يده ، وتولى معرضاً عن الوفاء بما عاهد فكان هذا النكث بالعهد مع الكذب على الله فيه سبباً فى التمكين للنفاق فى قلبه ، والموت مع هذا النفاق ، ولقاء الله به .

والنفس البشرية ضعيفة شحيحة ، إلا من عصم الله ؛ ولا تطهر من هذا الشح إلا أن تعمر بالإيمان ، وترتفع على ضرورات الأرض ، وتنطلق من قيود الحرص على النفع القريب ، لأنها تؤمل فى رضوان من الله أكبر . والقلب المؤمن يطمئن بالإيمان ، فلا يخشى الفقر بسبب الإنفاق ، لأنه يثق بأن ما عند الناس ينفد وما عند الله باق ، وهذا الاطمئنان يدفع به إلى انفاق المال فى

سبيل الله تطوعاً ورضا وتطهراً ، وهو آمن مغبته ، فحتى لو فقد المال وافتقر منه ، فإنه له عوض أعظم عند الله .

فأما حين يقفر القلب من الإيمان الصحيح ، فالشح الفطرى يهيج فى نفسه كلما دعا إلى نفقة أو صدقة ، والخوف من الفقر يتراءى له فيقعد به عن البذل . ثم يبقى سجين شحه وخوفه بلا أمن ولا قرار ، والذى يعاهد الله ثم يخلف العهد ، والذى يكذب على الله فلا يفى بما وعد ، لا يسلم قلبه من النفاق : « آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب ،وإذا وعد أخلف،وإذا ائتمن خان» .

فلا جرم يعقب إخلاف العهد والكذب على الله نفاقاً دائماً فى قلوب تلك الطائفة التى تشير إليها الآية : ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴾ وجهل هؤلاء المنافقون أن الله مطلع على السرائر،عالم بما يدور بينهم من أحاديث، يحسبونها سراً بينهم ؛ لأنهم يتناجون بها فى خفية عن الناس ؟ وأن الله يعلم الغيب الخافى المستور، فيعلم حقيقة النوايا فى الصدور ، ولقد كان مقتضى علمهم بهذا ، ألا يستخفوا عن الله بنية ، وألا تحدثهم نفوسهم بإخلاف ما عاهدوا الله عليه ، والكذب عليه فى إعطاء العهود .

وتعرض الآيات نموذجاً جديداً للنفاق وأهله ، ومن قبل أخبرنا الله عن المنافقين بأنهم (يقبضون أيديهم) ، وبعد ذكر هذا النموذج ذكر الله ـ عز وجل ـ صفة أخرى من صفاتهم وهى أنه لا يسلم أحد من عيبهم ولمزهم فى جميع الأحوال ، حتى المتصدقون لا يسلمون منهم ، إن جاء أحد منهم بمال جزيل قالوا : هذا مراء ، وإن جاء بشىء يسير قالوا : إن الله لغنى عن صدقة هذا .

فلا يسلم من تجريحهم أحد من الخيرين ، ذلك وهم قاعدون متخلفون منقبضو الأيدى شحيحو الأنفس ومن ثم يجبههم الرد الحاسم ﴿ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ المنافقون خطر شديد على الإسلام والمسلمين فى كل أمة وفى كل وقت .

٢ ـ ضرورة الوفاء بالوعد ، والصدق مع الله ـ تعالى .

٣ ـ الله ـ تعالى ـ لا يقبل من الصدقات إلا ما كان عن طيب نفس ، ومن غير رياء أو حب للظهور والتفاخر .

٤ ـ الله ـ سبحانه وتعالى ـ يعلم أسرار عباده وأحوالهم ، ولا يخفى عليه شىء مما فى صدورهم، ومما يتحدثون به بينهم ، وسيجازى كل إنسان على ما عمل أو قال .

٥ ـ ليست العبرة فى قبول الصدقات بكثرتها ولا بقلتها ، وإنما بإخلاص النية لله فيها .

أَسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً
فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ
وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ
بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ
وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ
أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا
جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ
مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن
تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟
مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ
عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ
﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم
بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَآ
أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ
أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾
٢٠٠

معانى الكلمات :

خلاف رسول الله : بعد خروجه ، أو لأجل مخالفته .

الخالفين : المتخلفين عن الجهاد .

لا تنفروا : لا تخرجوا للجهاد .

لا تقم على قبره : لا تقف على قبره للدفن أو الزيارة .

أولو الطول منهم : أصحاب الغنى .

ذرنا : اتركنا .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعرف علامات النفاق ونحذر الوقوع فيها .

٢ ـ أن ندرك قيمة الجهاد فى سبيل الله وطبائع المجاهدين .

٣ ـ ألا نفرح بترك الطاعة وفواتها فإنها شؤم على صاحبها .

المحتوى التربوى :

فى هذه الآيات يخبر الله تعالى رسول ﷺ بأن هؤلاء المنافقين ليسوا أهلاً للاستغفار وأنه لو استغفر لهم رسول الله ﷺ سبعين مرة ، فلن يغفر الله لهم ؛ بسبب كفرهم بالله ورسوله ، ولأن سنة الله أنه لا يهدى القوم الفاسقين .

ويبدو أن الرسول ﷺ كان يستغفر للمخطئين عسى أن يتوب الله عليهم . فأما هؤلاء فقد أخبرنا بأن مصيرهم قد تقرر ، فلا رجعة فيه : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ . أولئك الذين انحرفوا عن الطريق فلم تعد ترجى لهم أوبة، وفسدت قلوبهم فلم يعد يُرجى لها صلاح .

قال الزمخشرى : « فإن قلت : كيف خفى على أفصح الخلق وأخبرهم بأساليب الكلام وتمثيلاته أن الاستغفار لا يجدى ، قلت : لم يخف عليه ولكنه فعل ما فعل إظهارًا لغاية رحمته ورأفته على من إليه ، وهو كقول إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (إبراهيم) وهذا باعث على رحمة بعضهم بعضًا » .

وتتحدث الآيات مرة عن المتخلفين عن رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك ويستمر السياق يصور لنا المنافقين فى أحوالهم وأقوالهم ، وفى سياق الأمر بالنفير وموقفهم منه . وبعد هذه الجولات الطويلة ، تأتى الآن صورتان للتخلف عن النفير : صورة التخلف المنافق ، وصورة التخلف الاضطرارى للمؤمنين، فأما التخلف المنافق فتخلف يرافقه فرح ، وكراهية للجهاد فى سبيل الله، ومحاولة لتثبيط عن النفير ، وأشر وبطر ، ومن ثم فإن هؤلاء لا يستحقون شرف الجهاد ، ولا يستحقون كرامة الصلاة عليهم إذا ماتوا .

هؤلاء الذين أدركتهم ثقلة الأرض ، ثقلة الحرص على الراحة ، والشح بالنفقة ، وقعد بهم ضعف الهمة وهزال النخوة ، وخواء القلب من الإيمان ، هؤلاء المخلفون الذين فرحوا بالسلامة والراحة ﴿ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ ﴾ وتركوا المجاهدين يلاقوا الحر والجهد وحسبوا أن السلامة غاية يحرص عليها الرجال ! ﴿ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّ ﴾ وهى قولة المسترخى الناعم الذى لا يصلح لشىء مما يصلح له الرجال .

ويقول صاحب الظلال : « إن هؤلاء لهم نموذج لضعف الهمة ، وطراوة الإرادة ، وكثيرون هم الذين يشفقون من المتاعب ، وينفرون من الجهد ، ويؤثرون الراحة الرخيصة على الكدح الكريم ، ويفضلون السلامة الذليلة على الخطر العزيز ، وهم يتساقطون إعياء خلف الصفوف الجادة الزاحفة العارفة بتكاليف الدعوات . ولكن هذه الصفوف تظل فى طريقها المملوء بالعقبات والأشواك ، لأنها تدرك بفطرتها أن كفاح العقبات والأشواك فطرة فى الإنسان ، وأنه ألذ وأجمل من القعود والتخلف والراحة البليدة التى لا تليق بالرجال ».

وهؤلاء الذين آثروا الراحة على الجهد ـ فى ساعة العسرة ـ وتخلفوا عن الركب فى أول مرة، هؤلاء لا يصلحون لكفاح ، ولا يرجون لجهاد ، ولا يجوز أن يؤخذوا بالسماحة والتغاضى ، ولا أن يُتاح لهم شرف الجهاد الذى تخلوا عنه راضين .

لذا أمر الله ـ عز وجل ـ نبيه ﷺ أن يقول لهم : ﴿ لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴾ .

ويقول صاحب الظلال : إن الدعوات فى حاجة إلى طبائع صلبة مستقيمة ثابتة مصممة تصمد فى الكفاح الطويل الشاق ،والصف الذى يتخلله الضعاف المسترخون لا يصمد؛ لأنهم

يخذلونه فى ساعة الشدة فيشيعون فيه الخذلان والضعف والاضطراب . فالذين يضعفون ويتخلفون يجب نبذهم بعيدا عن الصف وقاية له من التخلخل والهزيمة . والتسامح مع الذين يتخلفون عن الصف فى ساعة الشدة ، ثم يعودون إليه فى ساعة الرخاء ، جناية على الصف كله ، وعلى الدعوة التى يكافح فى سبيلها كفاحه المرير .

هذا هو الطريق الذى رسمه الله ـ تعالى ـ لنبيه الكريم ، وإنه لطريق هذه الدعوة ورجالها أبداً، فليعرف أصحابها فى كل زمان وفى كل مكان ذلك الطريق ، وكما أمر الله رسوله ﷺ بألا يسمح للمتخلفين فى ساعة العسرة أن يعودوا فينتظموا فى الصفوف ، كذلك أمره ألا يخلع عليهم أى ظلال من ظلال التكريم .

فأمره ألا يصلى على أحد مات أبداً وألا يقوم على قبره ، فالصلاة والقيام تكريم ، والجماعة المسلمة يجب ألا تبذل هذا التكريم لمن يتخلف عن الصف فى ساعة الجهاد ؛ لتبقى له قيمته ، ولتظل قيم الرجال منوطة بما يبذلون فى سبيل الله ،وبما يصبرون على البذل ، ويثبتون على الجهد ، ويخلصون أنفسهم وأموالهم لله لا يتخلفون بهما فى ساعة الشدة ، ثم يعودون فى الصف مكرمين !

فلا تكريم ظاهر يناله المنافقون فى أعين الجماعة ، ولا تكريم باطن فى عالم الضمير : ﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴾ . فلا يقام لهم وزن لأموالهم وأولادهم ؛ لأن الإعجاب بها نوع من التكريم الشعورى لهم ، وهم لا يستحقونه لا فى الظاهر ولا فى الشعور ، إنما هو الاحتقار والإهمال لهم ولما يملكون .

وتظهر طبيعة النفاق والضعف والاستخذاء ، وخطة الالتواء والتخلف والرضا بالدون ، فإذا أنزلت سورة تأمر بالجهاد جاء أولو الطول ، الذين يملكون كل وسائل الجهاد والبذل ، جاءوا لا يتقدمون الصفوف كما تقتضيهم المقدرة التى وهبها الله لهم ، وشكر النعمة التى أعطاها الله إياهم ، ولكن ليتخاذلوا ويعتذروا ويطلبوا أن يقعدوا مع النساء لا يذودون عن حرمة ، ولا يدفعون عن سكن دون أن يستشعروا ما فى هذه القعدة الذليلة من صغار وهوان .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ تحمل الشدائد فى الدنيا فى سبيل الله يكون سبباً فى النجاة من شدائد الآخرة وأهوالها .

٢ ـ من علامات النفاق الفرح بطاعة غير الله وكراهية طاعة الله ورسوله .

٣ ـ تعمد ترك الطاعة قد يسبب الحرمان منها .

٤ ـ كراهة الصلاة على أهل الفسق دون الكفر .

٥ ـ حرمة غسل الكافر والقيام على دفنه والدعاء له .

رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ
لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ
جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ
وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى
مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَآءَ
ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟
ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ
﴿٩٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ
لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ
مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾
وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ
مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ
حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى
ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟
مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾
٢٠١

معانى الكلمات :

الخوالف : النساء المتخلفات عن الجهاد .

طُبع : خُتم .

المفلحون : الفائزون .

المعذرون : المعتذرون بالأعذار الكاذبة .

الضعفاء : كالشيوخ .

حرج : إثم أو ذنب .

تولوا : انصرفوا .

تفيض من الدمع : تمتلئ بالدمع فتصبه .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان فضل الجهاد وأهميته وأجر المجاهدين .

٢ ـ بيان حرمة التخلف عن الجهاد بدون عذر شرعى أو إذن من الإمام .

٣ ـ بيان يسر الإسلام وسماحته لأهل الأعذار فى عدم المشاركة فى الجهاد .

المحتوى التربوى :

يمضى السياق يصف الاستخذاء والذل عند المنافقين الذين لو أدركوا ما فى الجهاد من قوة وكرامة وبقاء كريم وما فى التخلف من ضعف ومهانة وفناء ذميم ، لما رضوا بأن يكونوا مع الخوالف ، ويتحدث صاحب الظلال ـ رحمه الله ـ عن هؤلاء الذين رضوا بأن يكونوا مع الخوالف أنهم يدفعون ضريبة الذل : « وإن للذل ضريبة كما أن للكرامة ضريبة . وإن ضريبة الذل لأفدح فى كثير من الأحايين ، وإن بعض النفوس الضعيفة ليخيل إليها أن للكرامة ضريبة باهظة لا تطاق ، فتختار الذل والمهانة ـ هرباً من هذه التكاليف الثقال ، فتعيش عيشة تافهة رخيصة مفزعة قلقلة ، تخاف من ظلها ، وتفرق من صداها ، يحسبون كل صيحة عليهم ، ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ، هؤلاء الأذلاء يؤدون ضريبة أفدح من تكاليف الكرامة ، إنهم يؤدون

ضريبة الذل كاملة ، يؤدونها من نفوسهم ، ويؤدونها من أقدارهم ويؤدونها من سمعتهم ، ويؤدونها من اطمئنانهم ، وكثيراً ما يؤدونها من دمائهم وأموالهم وهم لا يشعرون » .

ومن هؤلاء .. أولئك الذين ﴿ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ﴾ وهم طراز آخر غير ذلك الطراز .. ﴿ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ﴾ فنهضوا بتكاليف العقيدة ، وأدوا واجب الإيمان ؛ وعملوا للعزة التى لا تُنال بالقعود ﴿ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ﴾ ، خيرات الدنيا والآخرة ، فى الدنيا لهم العزة ولهم الكرامة ولهم المغنم ولهم الكلمة العالية ، وفى الآخرة لهم الجزاء الأوفى .

ولهم رضوان الله الكريم ﴿ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ الفلاح فى الدنيا بالعيش الكريم ، والفلاح فى الآخرة بالأجر العظيم . ﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ .

فأما الأولون فهم ذوو الأعذار الحقيقية ، فلهم عذرهم ـ إن استأذنوا فى التخلف ، وأما الآخرون فقعدوا بلا عذر . قعدوا كاذبين على الله والرسول ، وهؤلاء ينتظر الذين كفروا منهم عذاب أليم . أما الذين يتوبون ولا يكفرون فمسكوت عنهم ، لعل لهم مصيراً غير هذا المصير .

وأخيراً يحدد التبعة ، فليس الخروج ضربة لازب على من يطيقون ومن لا يطيقون ، فالإسلام دين اليسر ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، والذين عجزوا عن النفرة لا تثريب عليهم ولا مؤاخذة لهم ؛ لأنهم معذورون ، فليس على الضعفاء العاجزين عن القتال لعلة فى تكوينهم ، أو لشيخوخة تقعدهم ؛ ولا على المرضى الذين لا يستطيعون الحركة والجهد ؛ ولا على المعدمين الذين لا يجدون ما يتزودون به ، ليس على هؤلاء حرج إذا تخلفوا عن المعركة فى الميدان ، وقلوبهم مخلصة لله ورسوله ، لا يغشون ولا يخدعون ، ويقومون بعد ذلك بما يستطيعونه ـ دون القتال ـ من حراسة أو صيانة أو قيام على النساء والذرية فى دار الإسلام ، أو أعمال أخرى تعود بالنفع على المسلمين . ليس عليهم جناح ، وهم يحسنون بقدر ما يستطيعون ، فلا جناح على المحسنين ، إنما الجناح على المسيئين .

إنه الجهاد بمفهومه الشامل وهو نابع من شمولية الإسلام ، فليس الإسلام طقوسًا وشعائر فهذا ما يريده أعداء الإسلام وأذنابهم ، من فصله عن حياة الأمة .

ولا جناح كذلك على القادرين على الحرب ، ولكنهم لا يجدون الرواحل التى تحملهم إلى أرض المعركة ، فإذا حرموا المشاركة فيها لهذا السبب،ألمت نفوسهم حتى لتفيض أعينهم بالدمع؛ لأنهم لم يجدوا ما ينفقون .

قد أشار الأستاذ **الشيخ محمد أبو زهرة** إلى قوة وعزيمة بعض هؤلاء الضعفاء بقوله : « وإنه يجب أن ننبه أن بعض الضعفاء الذين رفع عنهم الحرج بسبب ضعفهم ، لم يرضوا بأن يكونوا قاعدين ، وإخوانهم يجاهدون ، بل ذهبوا وجاهدوا ، وتقدم أحدهم وهو أعرج ، قال : لا بد أن أكون بعرجى فى الجنة ولم يتراخ ، ولم يرض بالقعود ، وذهب بعضهم وهو يهادى بين رجلين ، حتى وصل إلى الصف ليموت مجاهدًا ـ ﷺ.

ويقول صاحب الظلال : « وإنها لصورة مؤثرة للرغبة الصحيحة فى الجهاد ، والألم الصادق للحرمان من نعمة أدائه ، وإنها لصورة واقعة حفظتها الروايات عن جماعة من المسلمين فى عهد الرسول ﷺ تختلف الروايات فى تعيين أسمائهم ، ولكنها تتفق على الواقعة الصحيحة .

روى العوفى ، عن ابن عباس : « وذلك أن رسول الله ﷺ أمر الناس أن ينبعثوا غازين معه ، فجاءته عصابة من أصحابه فيهم عبد الله بن مغفل بن مقرن المازنى ، فقالوا : يا رسول الله احملنا، فقال لهم : « والله لا أجد ما أحملكم عليه » فتولوا وهم يبكون ، وعز عليهم أن يجلسوا عن الجهاد ولا يجدون نفقة ولا محملاً ، فلما رأى الله حرصهم على محبته ومحبة رسوله أنزل عذرهم فى كتابه ، وقال مجاهد . نزلت فى بنى مقرن من مزينة .

وبمثل هذه الروح انتصر الإسلام ، وبمثل هذه الروح عزت كلمته ، فلننظر أين نحن من هؤلاء ، ولننظر أين روحنا من تلك العصبة ، ثم لنطلب النصر والعزة ـ إن استشعرنا من أنفسنا بعض هذه المشاعر ـ وإلا فلنسدد ولنقارب والله المستعان .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ ذم المتخلفين عن الجهاد مع القدرة عليه مع وجود الغنى والسعة جبناً وإيثاراً للراحة .

٢ ـ فضل الجهاد فى سبيل الله بالنفس والمال ، وعظمة ثواب المجاهدين فى الدنيا والآخرة .

٣ ـ الجهاد شرف عظيم لا يناله إلا ذوو الهمم العالية ، ويُحرم منه أهل النفاق وأهل الأعذار لأتفه الأسباب .

٤ ـ حرمة الاستئذان للتخلف عن الجهاد مع القدرة عليه .

٥ ـ حرمة التخلف عن الجهاد بدون إذن من الإمام .

٦ ـ يسر الإسلام وسماحته فى قبول أعذار أصحاب الأعذار وإعفاء المرضى والضعاف وكبار السن ، والعمى والعرج ونحوهم ، ومن لا يقدر على التجهيز للحرب ، أو الخروج لها بسبب فقره كما حدث للبكائين .

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن
نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى
اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ
وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ
بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا
عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا
يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن
تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ
﴿٩٦﴾ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا
حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ
الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ
عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ
الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ
مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ
لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾

٢٠٢

معانى الكلمات :

لن نؤمن لكم : لن نصدقكم .

نبأنا الله : أخبرنا .

انقلبتم : رجعتم .

رجس : قذر لخبث باطنهم .

الأعراب : أهل البدو .

أجدر : أحق وأولى .

مغرماً : غرامة وخسراناً .

يتربص بكم الدوائر : ينتظر أن تنزل بكم المصائب .

صلوات الرسول : دعواته واستغفاره للمنفقين .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعرف صفات المنافقين الواردة فى الآيات ، ونحذر الوقوع فيها عند التعامل مع أوامر الله ـ عز وجل .

٢ ـ أن نقصد بكل قول وعمل رضا الله ـ عز وجل ـ لا رضا الناس .

٣ ـ أن نعرف فضل الإنفاق فى سبيل الله ، ونتحرى فى إنفاقنا وجه الله ـ عز وجل ـ وابتغاء المثوبة .

المحتوى التربوى :

فى الآيات السابقة رفع الله ـ عز وجل ـ الحرج عن الضعفاء ، والمرضى ، والفقراء الذين لا يجدون ما ينفقون ، ولا يجد لهم الرسول ﷺ ما يحملهم عليه إلى أرض المعركة ، ووضع السبيل والجناح والحرج على الذين يستأذنون رسول الله ﷺ فى القعود وهم أغنياء قادرون ، لا يقعدهم عذر حقيقى عن الخروج ، والجناح والحرج على هؤلاء القادرين الذين يرضون أن يقعدوا قعدة الخوالف فى الدور .

ويمضى السياق يصف حال هؤلاء الأغنياء القادرين الذين رضوا بأن يكونوا مع الخوالف، ووراء حب الدعة وإيثار السلامة ، وسقوط الهمة ، وذلة النفس ، وانحناء الهامة هروب من المواجهة المصارحة لذا ﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ﴾ وهذا من إنباء الله لرسوله ﷺ وللمؤمنين بما سيكون من أمرهؤلاء المتخلفين من المنافقين بعد الرجوع من الغزوة . مما يدل على أن هذه الآيات نزلت فى أثناء العودة وقبل الوصول إلى المدينة .

يعتذرون إليكم عن تخلفهم وقعودهم ؛ ذلك لخجلهم من الظهور بفعلتهم هذه عارية ، ومن الكشف عن أسبابها الحقيقية ، وهى ضعف الإيمان ، وإيثار السلامة ، والإشفاق من الجهاد ؛ وأمر الله ـ عز وجل ـ نبيه أن يرد عليهم ﴿ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ﴾ ! فلا جدوى للقول ولا معول على الكلام ، ولكن اعملوا فإن صدق عملكم ما تقولون فذاك ، وإلا فلا ثقة بالقول ولا ائتمان ولا اطمئنان .

والله ـ عز وجل ـ لا تخفى عليه الأعمال ولا النوايا المخبوءة وراءها ، ورسول الله ﷺ سيزن قولكم بعملكم وعلى أساسه يكون التعامل معكم فى المجتمع المسلم ، ولن ينتهى الأمر ـ على كل حال ـ بما يجرى فى هذه الأرض فى فترة الحياة الدنيا ، فوراء ذلك حساب وجزاء ، يقومان على علم الله المطلق بالظواهر والسرائر .

ويأتى إنباء آخر من الله ـ سبحانه ـ لنبيه ﷺ ، عما سيكون من أمر القوم عندما يعود إليهم هو والمؤمنون معه سالمين آمنين ، وكان المنافقون قد ظنوا أنهم لا يعودون من لقاء الروم ! فقد علم الله وأخبر نبيه أنهم سيؤكدون معاذيرهم بالحلف بالله ؛ لعل المسلمين يعرضون عن فعلتهم وتخلفهم ـ عفواً وصفحاً ، ولا يحاسبونهم عليها ويجازونهم بها .

ثم يوجهه ربه إلى الإعراض عنهم فعلاً ـ لكن لا بمعنى العفو والصفح ، إنما بمعنى الإهمال والاجتناب ؛ معللاً ذلك بأنهم دنس يتجنب ويتوقى .

ثم يمضى السياق بعد بيان جزائهم ينبئ عما سيقع من هؤلاء القاعدين بعد عودة المجاهدين، فهم سيطلبون من المسلمين ابتداء أن يعرضوا عن فعلتهم ـ صفحاً وعفواً ، ثم يتدرجون من هذا إلى طلب رضا المسلمين عنهم ليضمنوا السلامة فى المجتمع المسلم بهذا الرضا ولكن الله ـ سبحانه ـ يقرر أنهم فسقوا عن دين الله بهذا القعود الناشئ عن النفاق ؛ وأن الله لايرضى عن القوم الفاسقين ، حتى ولو استطاعوا أن يحلفوا ويعتذروا حتى يرضى عنهم المسلمون .

وينتقل السياق لبيان تصنيف المجتمع الإسلامى فى ذلك الوقت ـ إبان غزوة تبوك ـ وبدأ بتصنيف الأعراب ـ وهم البدو ـ وقد كانت قبائل منهم حول المدينة ، وكانت لهم أدوار فى الهجوم على دار الإسلام فى المدينة قبل إسلامهم ، فلما أسلموا كانوا بوجه عام داخلين فى الفئتين

اللتين ورد وصفهما فى هذه الآيات ، والوصف هنا تقرير قاعدة كلية عن طبيعة الأعراب ، فالشأن فى البدو أن يكونوا أشد كفراً ونفاقاً ، وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله .

وروى الإمام أحمد ، عن ابن عباس ، عن رسول الله ﷺ : قال : « من سكن البادية جفا ، ومن اتبع الصيد غفل ، ومن أتى السلطان افتتن » . وبعد هذا الوصف الرئيسى العام للأعراب يجىء التصنيف حسبما أحدث الإيمان فى النفوس من أثر ، ومن أنشأه كذلك من فروق بين القلوب التى خالطتها بشاشة الإيمان ، والقلوب التى بقيت على ما فيها من كفر ونفاق ، فمن الأعراب من ينفق ماله فى الزكاة ، وفى غزوات المسلمين ؛ تظاهراً بالإسلام ، ليستمتع بمزايا الحياة فى المجتمع المسلم ومداراة للمسلمين وهم أصحاب السلطان اليوم فى الجزيرة ! وهو يعد ما ينفقه غرامة وخسارة ويتربص بهم الدوائر ، ويتمنى ألا يعودوا من غزاة سالمين ! وهنا يعاجلهم السياق بدعاء من الله ـ سبحانه ـ عليهم ؛ ﴿ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِ ﴾ ؛ وهناك فريق آخر خالط قلبه بشاشة الإيمان فآمن بالله واليوم الآخر وذلك باعث الإنفاق لديه ، لا الخوف من الناس ، ولا الملق للغالبين ، ولا حساب الربح والخسارة فى دنيا الناس ، وهذا الفريق المؤمن بالله واليوم الآخر يبتغى بما ينفق أن يكون قربى إلى الله ، ويتطلب صلوات الرسول (أى دعواته) الدالة على رضاه ﷺ ، المقبولة عند الله ، وهو يدعو بها للمؤمنين بالله واليوم الآخر ، المنفقين ابتغاء القربى من الله ورضاه .

لذلك يبادر السياق فيقرر لهم أنها قربى مقبولة عند الله ، ويبشرهم بحسن العاقبة وعداً من الله حقاً ، فيقبل التوبة والنفقة ، ويغفر ما كان من ذنب ، ويرحم من يبتغون الرحمة .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ من إعجاز القرآن الكريم إخباره المؤمنين بأحوال المنافقين وأعمالهم وما فى نفوسهم .

٢ ـ المنافقون يفضلون رضا الناس على رضا الله ـ تعالى ـ ويؤكدون كلامهم الكاذب بالحلف بأغلظ الأيمان .

٣ ـ الأعراب منهم المنافقون ومنهم المؤمنون ، والمنافقون والكافرون منهم أشد وأعظم نفاقاً وكفراً من غيرهم .

٤ ـ فضل النفقة فى سبيل الله والإخلاص فيها لله ـ تعالى .

٥ ـ حرمة الرضا على الفاسق المجاهر بفسقه ، إذ يجب بُغضه فكيف يُرضى عنه ويُحب ؟

٦ ـ مشروعية الاعتذار على شرط أن يكون المرء صادقاً فى اعتذاره .

وَالسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ
ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ
لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا
ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ
مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ
نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ
عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا
وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾
خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ
إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟
أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ
ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ
وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ
فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ
ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾
٢٠٣

معانى الكلمات :

أعد لهم : هيأ لهم .

الأعراب : أهل البادية .

مردوا على النفاق : مرنوا عليه ودربوا به .

عسى : يُرجى ويُتوقع .

تزكيهم بها : تنمى بها حسناتهم .

صلِّ عليهم : ادع لهم واستغفر لهم .

سكن لهم : طمأنينة ورحمة لهم .

الغيب : ما احتجب عن الأبصار والعقول.

الشهادة : الحضور والشهود .

وآخرون مرجون : وآخرون من المتخلفين مؤخرون لا يُقطع لهم بتوبة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم فضل السابقين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ، ونوقر ذكرهم وسيرتهم فى قلوبنا .

٢ ـ ألا نحكم على الناس بالباطن فنحن لا نعلمه ، ولا يعلم أحد من الغيب إلا ما علمه الله ـ عز وجل .

٣ ـ أن ندرك أهمية الصدقة فى قبول التوبة ومغفرة الذنوب .

المحتوى التربوى :

فى هذه الآيات وبعد تصنيف الأعراب ـ على وجه الإجمال ـ يستطرد السياق فى تصنيف المجتمع كله .. حاضره وباديه .. إلى أربع طبقات إيمانية : السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ، والمنافقين الذين مردوا على النفاق من أهل المدينة ومن الأعراب ، والذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، والذين أرجئ الحكم فى أمرهم حتى يقضى الله فيهم بقضائه .

والظاهر أن هذا التصنيف قد نزلت به هذه الآيات بعد العودة من تبوك ؛ وبعد اعتذار من اعتذر من المنافقين المتخلفين ومن المؤمنين المتخلفين كذلك ، سواء من اعتذر صادقاً ، ومن ربط نفسه بسارية المسجد حتى يطلق وثاقه رسول الله ﷺ ، ومن لم يعتذر بشيء ـ راجياً أن يقبل الله توبته بصدقه ، وهم الثلاثة الذين خلفوا ، فلم يحكم فى شأنهم بشيء حتى تاب الله عليهم وقبل توبتهم ـ كما سيجيء ـ وكان مجموع هؤلاء يمثل صنوف الناس من حول الدعوة ، وفى الجزيرة عقب غزوة تبوك .

وكان الله ـ سبحانه ـ يكشف أرض الحركة كلها وما عليها ومن عليها لرسوله ﷺ ومن معه من المؤمنين قبل أن ينطلق إلى الأرض كلها بإعلانه العام بالعبودية لله وحده والدينونة له وحده ، وتحرير الإنسان فى الأرض من العبودية للعباد فى شتى الصور والأشكال .

والطبقة الأولى بمجموعاتها الثلاث : « السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ، والذين اتبعوهم بإحسان ، كانت تؤلف القاعدة الصلبة للمجتمع المسلم فى الجزيرة بعد الفتح ، والسابقون من المهاجرين هم الذين هاجروا قبل بدر ، وكذلك السابقون من الأنصار . أما الذين اتبعوهم بإحسان ـ الذين يعنيهم هذا النص وهو يتحدث عما كان واقعاً إبان غزوة تبوك ، فهم الذين اتبعوا طريقهم ، وآمنوا إيمانهم ، وأبلوا بلاءهم بعد ذلك ، وارتفعوا إلى مستواهم الإيمانى وإن بقيت للسابقين سابقتهم بسبقهم فى فترة الشدة قبل بدر ، وهى أشد الفترات طبعاً . ويتحدث صاحب الظلال عن هذا التمايز الإيمانى فى صفوف المجتمع المسلم قائلاً : « نعم إنه كانت فى هذا المجتمع ما تزال هناك أقدار متفاوتة أنشأتها الحركة العقدية ذاتها ، فتميزت مجموعات من المؤمنين بأقدارها على قدر بلائها فى الحركة وسبقها وثباتها .. تميز السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار . وتميز أهل بدر ، وتميز أصحاب بيعة الرضوان فى الحديبية ، ثم تميز ـ بصفة عامة ـ الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا ، وجاءت النصوص القرآنية والأحاديث النبوية ، والأوضاع العملية فى المجتمع المسلم ، تؤكد هذه الأقدار التى أنشأتها الحركة بالعقيدة ، وتنص عليها ... » .

ذلك مستوى .. وفى مقابلة مستوى ﴿ ٱلْأَعْرَابِ ﴾ الذين سبق الحديث والكشف عنهم عامة سواء من منافقى المدينة ، أو منافقى الأعراب ، ولكن الحديث هنا عن صنف خاص حذق النفاق ومرن عليه ولجّ فيه ومرد حتى ليخفى أمره على رسول الله ﷺ مع كل فراسته وتجربته ، والله يؤمن رسوله والمؤمنين من كيدهم ، وينذر هؤلاء المنافقين بأنه ـ سبحانه ـ لن يدعهم ، فسيعذبهم عذاباً مضاعفاً فى الدنيا والآخرة .

وبين المستويين المتقابلين ، مستويان بين بين ـ أولهما : من اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، قيل : نزلت فى أبى لبابة وأصحابه ، وهؤلاء حسم أمرهم بأن أطلق وثاقهم

الرسول ﷺ وعذرهم بعد نزول هذه الآيات ، وقبل الله توبتهم ، وأمر النبى ﷺ بأن يأخذ من أموالهم صدقة؛ ويدعوهم لتهدأ نفوسهم وتطمئن بتوبة الله عليهم لما علم حسن وصدق توبتهم ، ويوجه الحديث إلى المتخلفين التائبين بأن محك الصدق فى توبتهم هو العمل الظاهر الذى يراه الله ورسوله والمؤمنون . فأما فى الآخرة فمردهم إلى عالم الغيب والشهادة الذى يعلم فعل الجوارح وكوامن الصدور. وأن الندم والتوبة ليسا نهاية المطاف، ولكنه العمل الذى يعقب الندم والتوبة، فيصدق أو يكذب تلك المشاعر النفسية ويعمقها أو يكتسحها بعد أن تكون !

والفريق الأخير هو الذى لم يثبت فى أمره ، وقد وكل أمره إلى ربه : وهم القسم الآخر من المتخلفين من غزوة تبوك ـ غير المنافقين والمعتذرين والمخطئين الثائبين ، وهذا القسم لم يكن حتى نزول هذه الآيات قد بُت فى أمره بشىء .

وكان أمرهم موكولاً إلى الله ، لم يعلموه ولم يعلمه الناس بعد ، وقد روى أن هذه الآية نزلت فى الثلاثة الذين خلفوا - أى أجل إعلان توبتهم والقضاء فى أمرهم ؛ وهم مرارة بن الربيع ، وكعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، الذين قعدوا عن غزوة تبوك ـ كسلاً وميلاً إلى الدعة واستراحاً للظلال فى حر الهاجرة ! ثم كان لهم شأن مع رسول الله ﷺ سيأتى تفصيله فى موضعه من السورة .

ولما كان أمرهم مرجأ ، فإننا نحب أن نرجئ الحديث فيه حتى يجىء فى موضعه ـ إن شاء الله تعالى .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ فضل المهاجرين مع النبى ﷺ من مكة إلى المدينة ـ وبخاصة السابقون منهم إلى الإسلام ، وفضل الأنصار من أهل المدينة ـ وبخاصة السابقون منها إلى الإسلام أيضا ، وفضل كل من اتبعوهم بإحسان .

٢ ـ نعيم الدنيا لا يمنع نعيم الآخرة ، وكذلك عذاب الدنيا لا يمنع عذاب الآخرة .

٣ ـ الندم والتوبة ليسا نهاية المطاف ، ولكنه العمل الذى يعقب الندم والتوبة ، فيصدق أو يكذب تلك المشاعر النفسية ويعمقها أو يكتسحها بعد أن تكون .

٤ ـ علم ما فى القلوب إلى الله ـ تعالى ـ فلا يعلم أحد من الغيب إلا ما علَّمه الله ـ عز وجل .

٥ ـ الرجاء لأهل التوحيد الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئًا بأن يغفر الله لهم ويرحمهم .

٦ ـ الصدقة تكفر الذنوب وتطهر الأرواح من رذيلة الشُّح والبخل .

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ
الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ
وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ
﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ
يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا
وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ
عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ
عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي
الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً
فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾
إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم
بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ
وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ
وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا
بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾

٢٠٤

معانى الكلمات :

ضرارًا : إيقاع الضرر والإيذاء بغيرهم .

وكفرا : أى الكفر بالله والمباهاة لأهل الإسلام ؛ لأنهم أرادوا ببنائه تقوية أهل النفاق .

إرصادًا : ترقبًا وانتظاراً .

على شفا جرف : على حرف بئر لم تبن بالحجارة .

هار : هائر متصدع أو متهدم .

فانهار به : فسقط البنيان بالبانى .

ريبة : شكا ونفاقاً .

تقطع قلوبهم : تتقطع وتتفرق أجزاءً بالموت .

الأهداف الإجرائية والسلوكية:

١ ـ أن نعرف فضل الجهاد والاستشهاد فى سبيل الله .

٢ ـ أن نشكر لله فضله ـ تعالى ـ ومننه على أن وهبنا أرواحنا وأموالنا ثم اشتراها منا .

٣ ـ أن نستشعر طبيعة وحقيقة البيعة مع الله ونلتزم بالوفاء بها .

المحتوى التربوى :

تتحدث الآيات فى بدايتها عن مسجد الضرار وهى قصة بارزة فى غزوة تبوك ، لذلك أفردت المنافقين الذين قاموا بها من بين سائر المنافقين ، وخصص لهم حديثاً مستقلًا بعد انتهاء الاستعراض العام لطوائف الناس فى المجتمع المسلم ـ حينذاك .

ولا مجال لسرد القصة كما وردت فى تفسير ابن كثير ، ولكن نقول : إن هذا المسجد - مسجد الضرار - الذى اتخذ على عهد رسول الله ﷺ مكيدة للإسلام والمسلمين ، لا يراد به إلا الإضرار - بالمسلمين ، وإلا الكفر بالله ، وإلا ستر المتآمرين على الجماعة المسلمة ، الكائدين لها فى الظلام . هذا المسجد ما يزال يتخذ فى صور شتى تلائم ارتقاء الوسائل الخبيثة التى يتخذها أعداء هذا الدين ، تتخذ فى صورة نشاط ظاهره الإسلام وباطنه لسحق الإسلام وتتخذ فى صورة أوضاع

ترفع لافتة الدين عليها ؛ لتترس وراءها وهى ترمى هذا الدين ، يتخذ فى صورة تشكيلات وتنظيمات وكتب وبحوث تتحدث عن الإسلام لتخدر القلقين الذين يرون الإسلام يذبح ويمحق ، فتحذرهم إلى أن الإسلام بخير لا خوف عليه ولا قلق ! وتتخذ فى صور شتى كثيرة .

ويقول صاحب الظلال ـ معلقًا على عاقبة مسجد الضرار : « لقد انهار الجرف المنهار انهار ببناء الضرار الذى أقيم عليه ، انهار به فى نار جهنم وبئس القرار ! ولكن ركام البناء بقى فى قلوب بناته ، بقى فيها ﴿ رِيبَةً ﴾ وشكاً وقلقاً وحيرة ، وسيبقى كذلك لا يدع تلك القلوب تطمئن أو تثبت أو تستقر . إلا أن تتقطع وتسقط هى الأخرى من الصدور .

مما سبق يتبين لنا أن القرآن الكريم كان يعمل فى قيادة المجتمع المسلم ، وفى توجيهه ، وفى توعيته،وفى إعداده لمهمته الضخمة من خلال كشفه لطبيعة المجتمع من حول المؤمنين بكل فئاته، وتصنيفه لطبقاته الإيمانية وكشفه للمنافقين بكل أصنافهم ، وبما كادوه من مكائد ومؤامرات للدعوة ولرجالها .

وينتقل السياق ليرسم بقية الأحكام النهائية فى طبيعة العلاقات بين المجتمع المسلم وغيره ، تبدأ من تحديد العلاقة بين المسلم وربه ، وتحديد طبيعة ، «الإسلام» الذى أعلنه ، ومن بيان تكاليف هذا الدين ، ومنهج الحركة به فى مجالاته الكثيرة .

ويقول صاحب الظلال معلقا على بداية هذه الأحكام : إن الدخول فى الإسلام صفقة بين متبايعين .. الله - سبحانه - فيها هو المشترى ، والمؤمن فيها هو البائع . فهى بيعة مع الله لا يبقى بعدها للمؤمن شىء فى نفسه ولا فى ماله يحتجزه دون الله - سبحانه ـ ودون سبيله ؛ لتكون كلمة الله هى العليا ، وليكون الدين كله لله ، فقد باع المؤمن لله فى تلك الصفقة نفسه وماله مقابل ثمن محدد معلوم ، هو الجنة : وهو ثمن لا تعدله السلعة ولكنه فضل الله ومنّه .

والذين باعوا هذه البيعة ، وعقدوا هذه الصفقة هم صفوة مختارة ، ذات صفات مميزة .. منها ما يختص بذوات أنفسهم فى تعاملها المباشر مع الله فى الشعور والشعائر ؛ ومنها ما يختص بتكاليف هذه البيعة فى أعناقهم من العمل خارج ذواتهم ، لتحقيق دين الله فى الأرض من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والقيام على حدود الله فى أنفسهم وفى سواهم .

وحقيقة هذه البيعة - أو هذه المبايعة كما سماها الله كرمًا منه وفضلاً وسماحة - أن الله - سبحانه – قد استخلص لنفسه أنفس المؤمنين وأموالهم ، فلم يعد لهم منها شىء ، لم يعد لهم أن يستبقوا منها بقية لا ينفقونها فى سبيله ، لم يعد لهم خيار فى أن يبذلوا أو يمسكوا .. كلا .. إنها صفقة مشتراه ، لشاريها أن يتصرف بها كما يشاء ، وفق ما يفرض ما يحدد ، وليس للبائع فيها من شىء سوى أن يمضى فى الطريق المرسوم ، لا يتلفت ولا يتحير ، ولا يناقش ولا يجادل ، ولا يقول إلا

الطاعة والعمل والاستسلام والثمن : هو الجنة ، والطريق : هو الجهاد والقتل والقتال،والنهاية : هى النصر أو الاستشهاد .

من بايع على هذا . من أمضى عقد الصفقة .من ارتضى الثمن ووفى . فهو المؤمن .

فالمؤمنون هم الذين اشترى الله منهم فباعوا ، ومن رحمة الله أن جعل للصفقة ثمنًا ، وإلا فهو واهب الأنفس والأموال ، وهو مالك الأنفس والأموال ، ولكنه كرَّم هذا الإنسان فجعله مريدًا؛ وكرمه فجعل له أن يعقد العقود ويمضيها - حتى مع الله - وكرمه فقيده بعقوده وعهوده ؛ وجعل وفاءه بها مقياس إنسانيته الكريمة ؛ ونقضه لها هو مقياس ارتكاسه إلى عالم البهيمة .. شر البهيمة ..﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ۝ ﴾ (الأنفال) كما جعل مناط الحساب والجزاء هو النقض أو الوفاء.

وإنها لبيعة رهيبة – بلا شك – ولكنها فى عنق كل مؤمن - قادر عليها - لا تسقط عنه إلا بسقوط إيمانه ، والجهاد بيعة معقودة بعنق كل مؤمن على الإطلاق منذ كانت الرسل ومنذ كان دين الله ، إنها السنة الجارية التى لا تستقيم هذه الحياة بدونها ولا تصلح الحياة بتركها : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾ (البقرة : ٢٥١) .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ الجهاد فى سبيل الله فريضة ، والتخلف عنه معصية تستوجب التوبة .

٢ـ النفاق مرض اجتماعى ندد به المنهج القرآنى فى سور كثيرة .مثل : النساء – التوبة – المنافقون - الأحزاب .. وغيرها ، وقف القرآن موقفاً صلباً منه .

٣ ـ أهمية المسجد فى الدعوة إلى الله ، وكيفية الاستفادة منه بما يعود بالخير والنفع على المسلمين فى أمور دينهم ودنياهم ، وتفعيل دوره كما كان فى زمن الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين ومن بعدهم حتى أسقطت الخلافة .

٤ ـ لا يصلح الاغترار بأقوال أهل النفاق فإنها كذب كلها .

٥ ـ التحذير من الظلم والإسراف فيه ، فإنه يحرم صاحبه هداية الله فيهلك وهو ظالم فيخسر دنيا وأخرى .

٦ ـ على المؤمن أن يشعر نفسه أن بدنه وماله لله ـ تعالى ـ وأن عليه رعايتها وحفظها حتى ترفع راية الجهاد ، فيقدم نفسه وماله إذ هما وديعة الله ـ تعالى ـ عنده .

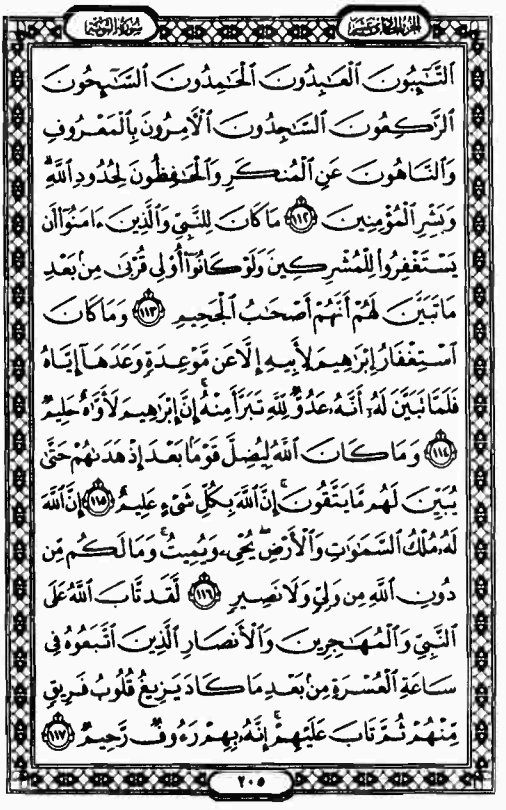
التَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ
ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ
وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ
وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟
يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ
مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ
ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ
فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ
﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ
يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ
لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن
دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى
ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى
سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ
مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾
٢٠٥

معانى الكلمات :

السائحون : الغزاة المجاهدون .

لحدود الله : لأوامره ونواهيه.

أولى القربى : ذوى قرابة .

موعدة وعدها إياه : أى وعد تقدم من إبراهيم لأبيه بالاستغفار له .

أواه : كثير التأوه ـ خوفاً وحسرة .

ساعة العسرة : وقت الشدة والضيق فى غزوة تبوك .

يزيغ : يميل إلى التخلف عن الجهاد .

الأهداف الإجرائية والسلوكية:

١ ـ أن نسعى جاهدين للاتصاف بصفات المؤمنين التى وردت بالآيات .

٢ ـ أن نحرر الولاء لله بطاعته واللجوء إليه بالتوكل عليه .

٣ ـ أن نفى بالوعود والعهود .

٤ ـ أن نعتقد أن الله لا يضل عباده قبل أن يبين لهم ما يجب عليهم عمله أو اتقاؤه .

المحتوى التربوى :

تستكمل الآيات الحديث عن هذه البيعة التى ختمها الله بوعد معروف مشهور مؤكد مكرور، إنه وعد بالجنة لمن يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، وهو بهذا الوعد لا يدع مجالاً للشك فى أصالة عنصر الجهاد فى سبيل الله فى طبيعة هذا المنهج الربانى ، وهذا الوعد ثابت فى التوراة والإنجيل والقرآن ، فهذا إذن هو القول الفصل الذى ليس بعده لقائل مقال !

إن الجهاد فى سبيل الله ليس مجرد اندفاعة إلى القتال : إنما هو قمة تقوم على قاعدة من الإيمان المتمثل فى مشاعر وشعائر وأخلاق وأعمال . والمؤمنون الذين عقد الله معهم البيعة والذين تتمثل

فيهم حقيقة الإيمان هم قوم تتمثل فيهم صفات إيمانية أصيلة فهم التائبون مما أسلفوا ، العائدون إلى الله مستغفرين ، والتوبة شعور بالندم على ما مضى، وتوجه إلى الله فيما بقى ، وكف عن الذنب، وعمل صالح يحقق التوبة بالفعل كما يحققها بالترك ، فهى طهارة وزكاة ، وتوجه وإصلاح .

وهم العابدون المتوجهون إلى الله وحده بالعبادة وبالعبودية ـ إقراراً بالربوبية . هذه صفة ثابتة فى نفوسهم تترجمها الشعائر كما يترجمها التوجه إلى الله وحده بكل عمل وبكل قول وبكل طاعة وبكل اتباع . فهى إقرار بالألوهية والربوبية لله فى صورة عملية واقعية ، وكذلك هم الحامدون الذين تنطوى قلوبهم على الاعتراف للمنعم بما أنعم ؛ وتلهج ألسنتهم بحمد الله فى السراء والضراء فى السراء للشكر على ظاهر النعمة ، وفى الضراء للشعور بما فى الابتلاء من الرحمة ، وليس الحمد هو الحمد فى السراء وحدها ولكن الحمد فى الضراء حين يدرك القلب المؤمن أن الله الرحيم العادل ما كان ليبتلى المؤمن إلا لخير يعلمه ، مهما خفى على العباد إدراكه .

وهم ﴿ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ﴾ المتفكرون فى خلق الله وسننه ، فمع التوبة والعبادة والحمد يكون التدبر فى ملكوت الله على هذا النحو الذى ينتهى بالإنابة إلى الله ، وإدراك الحق الذى يقوم عليه الخلق ، لا للاكتفاء بهذا الإدراك وإنفاق العمر فى مجرد التأمل والاعتبار ، ولكن لبناء الحياة وعمرانها بعد ذلك على أساس هذا الإدراك ، وهم كذلك ﴿ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ﴾ الذين يقيمون الصلاة ويقومون بها كأنها صفة ثابتة من صفاتهم ، وكأن الركوع والسجود طابع مميز بين الناس لهم . وهم ﴿ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ لتقرير ألوهية الله وحده سبحانه وتحقيق قيام المجتمع المسلم وهو المعروف الأكبر ، ومواجهة الطاغوت الذى يعبد الناس لغير الله وهو المنكر الأكبر ، وبعد ذلك كله هم ﴿ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ﴾ وهو القيام على حدود الله لتنفيذها فى النفس وفى الناس ومقاومة من يضيعها أو يعتدى عليها، وهذه هى الجماعة المؤمنة التى عقد الله معها بيعته وبايعها على الجنة ، واشترى منها الأنفس والأموال ، لتمضى مع سنة الله الجارية منذ كان دين الله ورسله ورسالاته .فقتال فى سبيل الله لإعلاء كلمة الله ، وقتل لأعداء الله الذين يحادّون الله ، أو استشهاد فى المعركة التى لا تفتر بين الحق والباطل ، وبين الإسلام والجاهلية ، وبين الشريعة والطاغوت ، وبين الهدى والضلال .

وينتقل السياق ليقطع ما بين المؤمنين الذين باعوا تلك البيعة وبين من لم يدخلوا معهم فيها - ولو كانوا أولى قربى - بعدما اختلفت الوجهتان واختلفت العاقبتان فى الدنيا والآخرة ، والظاهر أن بعض المسلمين كانوا يستغفرون لآبائهم المشركين ويطلبون إلى رسول الله ﷺ أن يستغفر لهم، فنزلت الآيات تقرر أن فى هذا الاستغفار بقية من تعلق بقرابات الدم ، فى غير صلة بالله ، لذلك ما كان للنبى ، والذين آمنوا أن يفعلوه ، ولما كان لهم قطعاً وليس من شأنهم أصلاً .

ويقول صاحب الظلال : إن العقيدة هى العروة الكبرى التى تلتقى فيها سائر الأواصر البشرية والعلاقات الإنسانية .فإذا انبتت وشيجة العقيدة انبتت الأواصر الأخرى من جذورها، فلا لقاء بعد ذلك فى نسب ، ولا لقاء بعد ذلك فى صهر ، ولا لقاء بعد ذلك قوم ولا أرض أو لا إيمان ، فلا صلة إذن يمكن أن تقام بين إنسان وإنسان » .

فلا أسوة بإبراهيم فى استغفاره لأبيه ، فإنما كان استغفار إبراهيم لأبيه ، لسبب وعده له أن يستغفر له الله لعله يهديه فلما أن مات أبوه على الشرك ، وتبين إبراهيم أن أباه عدو لله لا رجاء فى هداه ، وتبرأ منه « وقطع صلته به » .

والله لا يحاسب الناس إلا على ما بين لهم أن يتقوه ويحذروه ولا يأتوه ، وليس من شأنه أن يذهب بهدى قوم بعد إذ هداهم ويكلهم إلى الضلال لمجرد الفعل ، ما لم يكن هذا الفعل مما نهاهم عنه قبلاً .. ذلك أن الإنسان قاصر والله هو العليم بكل شىء ومنه البيان والتعليم . ولما كانت تلك طبيعة البيعة ، كان التخلف عن الجهاد للقادرين - أياً كانت الأسباب - أمراً مستنكراً عظيماً ، ثم تبين الآيات فيما يلى فضل الله ورحمته بالمؤمنين إذ يتجاوز عما بدا من التردد والتخلف من المؤمنين المخلصين ، ويتوب الله عليهم فيما وقع منهم من أخطاء صغرت أم كبرت ، وتوبة الله على النبى ﷺ تفهم بالرجوع إلى ما كان فى أحداث الغزوة بجملتها ، والظاهر أنها متعلقة بما سبق أن قال الله عنه لنبيه : ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ مع تنبيهه إلى أن الأولى كان هو التريث حتى يتبين النبى الصادقين فى أعذارهم من الكاذبين المتمحلين !

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ على المؤمن أن يتعاهد نفسه ؛ ليرى هل هو متصف بهذه الصفات التسع أولا ، فإن رأى نقصاً كمله ، وإن رأى كمالاً حمد الله ـ تعالى ـ عليه وحفظه وحافظ على .

٢ ـ لن ينفع الإنسان يوم القيامة قرابة ولا نسب ، ولا مال ولا جاه .. إلخ وإنما ينفعه إيمانه وعمله الصالح .

٣ ـ لا يجوز الاستغفار – لمن مات على الشرك ؛ لأن الله لا يغفر أن يُشرك به ، فلذا لا يطلب منه شىء أخبر أنه لا يفعله .

٤ ـ وجوب الوفاء بالوعود والعهود .

٥ ـ ليس من سنة الله ـ تعالى ـ أن يضل عباده قبل أن يبين لهم ما يجب عليهم عمله أو اتقاؤه .

٦ ـ ليس للعبد من دون الله من ولى يتولاه ولا نصير ينصره ، ولذا وجبت ولاية الله بطاعته واللجوء إليه بالتوكل عليه .

سورة التوبة

وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ
بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ
مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ
ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ
ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم
مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ
عَن نَّفْسِهِۦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ
وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ
ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم
بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾
وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ
وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ
يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً
فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ
وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾

٢٠٦

معانى الكلمات :

خُلفوا: تخلفوا عن غزوة «تبوك» بلا عذر .

بما رحبت : مع رحبها وسعتها .

ليتوبوا : ليداوموا على التوبة .

لا يرغبوا بأنفسهم : لا يترفعوا بها ولا يصرفوها .

نصب : أى تعب .

مخمصة : أية مجاعة .

ولا يطؤون موطئاً : ولا يدوسون مكاناً .

يغيظ الكفار : يغضبهم

نيلاً : شيئًا من قتل أو أسر أو غنيمة .

لينفروا كافة : ليخرجوا إلى الجهاد جميعاً .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نلتزم بالصدق ـ قولاً وفعلاً ـ وإن بدا فيه الهلكة فعاقبته نجاة .

٢ ـ أن نعرف فضل وثواب المجاهدين فى سبيل الله ونقتفى أثرهم .

٣ ـ أن نعلم فضل طلب العلم ، والتفقه فى الدين ، والدعوة إلى الله .

المحتوى التربوى :

يتناول السياق قصة الثلاثة الذين تخلفوا غزوة تبوك وهم : كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع ، وبالعودة إلى القصة ـ كما وردت عند كتاب السير ـ تصف وقائع الغزوة والندب إليهم ، وتخلف المنافقين عنها ، وصدق الثلاثة الذين سبقت الإشارة إليهم من دون الثمانين منافقاً، وموقف الرسول ﷺ وأمره باعتزالهم ، والنهى عن محادثاتهم ، واعتزال نسائهم أيضا مدة خمسين ليلة ثم يجىء الفرج - بعد أن ﴿ ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ﴾ ـ يجىء الفرج ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ

﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ تاب عليهم من هذا الذنب الخاص ؛ ليتوبوا توبة عامة عن كل ما مضى ، ولينيبوا إلى الله إنابة كاملة فى كل ما سيأتى .

وفى ظل قصة التوبة على الذين ترددوا والذين تخلفوا ؛ وفى ظل عنصر الصدق البادى فى قصة الثلاثة الذين خلفوا ، يجىء الهتاف للذين آمنوا جميعاً أن يتقوا الله ويكونوا مع الصادقين فى إيمانهم من أهل السابقة ، ويجىء التنديد بتخلف أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب ، مع الوعد بالجزاء السخى للمجاهدين .

يقول صاحب الظلال : « إن أهل المدينة هم الذين تبنوا هذه الدعوة وهذه الحركة ، فهم أهلها الأقربون ، وهم بها ولها ، وهم الذين آووا رسول الله ﷺ وبايعوه ، وهم الذين باتوا يمثلون القاعدة الصلبة لهذا الدين فى مجتمع الجزيرة كله ، وكذلك القبائل الضاربة من حول المدينة وقد أسلمت ؛ وباتت تؤلف الحزام الخارجى للقاعدة ، فهؤلاء وهؤلاء ليس لهم أن يتخلفوا عن رسول الله ﷺ فى الحر أو البرد ، فى الشدة أو الرخاء . فى اليسر أو العسر ؛ ليواجه تكاليف هذه الدعوة وأعباءها ، فإنه لا يحق لأهل المدينة ـ أصحاب الدعوة ، ومن حولهم من الأعراب ، وهم قريبون من شخص رسول الله ﷺ ولا عذر لهم فى ألا يكونوا قد علموا ، أن يشفقوا على أنفسهم مما يحتمله رسول الله ﷺ . ومن أجل هذه الاعتبارات يهتف بهم أن يتقوا الله ويكونوا مع الصادقين ، الذين لم يتخلفوا ، ولم تحدثهم نفوسهم بتخلف ، ولم يتزلزل إيمانهم فى العسرة ولم يتزعزع ، وهم الصفوة المختارة من السابقين والذين اتبعوهم بإحسان .

ثم يمضى السياق بعد هذا الهتاف ـ مستنكراً مبدأ التخلف عن رسول الله ، وفى التعبير تأنيب خفى ، فما يؤنب أحداً صاحب رسول الله ﷺ بأوجع من أن يقال عنه : إنه يرغب بنفسه عن نفس رسول الله ، وهو معه وهو صاحبه !

وإنها لإشارة تلحق أصحاب هذه الدعوة فى كل جيل ، فما كان المؤمن أن يرغب بنفسه عن مثل ما تعرضت له نفس رسول الله فى سبيل هذه الدعوة ، وهو يزعم أنه صاحب الدعوة ، وأنه يتأسى فيها برسول الله ﷺ ؛ إنه الواجب الذى يوجبه الحياء من رسول الله فضلاً على الأمر الصادر من الله – ومع هذا فالجزاء عليه ما أسخاه !

إنه على الظمأ جزاء ، وعلى النصب جزاء ، وعلى الجوع جزاء ، وعلى كل موطئ يغيظ الكفار جزاء وعلى كل نيل من العدو جزاء . يكتب به للمجاهد عمل صالح ، ويحسب من المحسنين الذين لا يضيع لهم الله أجراً ، وإنه على النفقة الصغيرة أو الكبيرة أجر ، وعلى الخطوات لقطع الوادى أجر أجر ـ كأحسن ما يعمل المجاهد فى الحياة .

ويقول صاحب الظلال : « ألا والله ، إن الله ليجزل لنا العطاء ، وإنها والله للسماحة فى الأجر والسخاء. وإنه كما يخجل أن يكون ذلك كله على أقل مما احتمله رسول الله ﷺ من الشدة واللأواء . فى سبيل هذه الدعوة التى نحن فيها خلفاء ، وعليها بعده آمناء !

ويبدو أن تنزل القرآن فى هذه السورة بالنكير على المتخلفين ؛ والتنديد بالتخلف ـ وبخاصة من أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب ؛ قد جعل الناس يتزاحمون فى المدينة ليكونوا رهن إشارة رسول الله ﷺ وبخاصة من القبائل المحيطة بالمدينة . مما اقتضى بيان حدود النفير العام ، فقد اتسعت رقعة الأرض الإسلامية حتى كادت الجزيرة كلها تدين للإسلام ، وكثر عدد الرجال المستعدين للجهاد ، وقد بلغ من عددهم - بعد تخلف المتخلفين فى تبوك ـ نحواً من ثلاثين ألفاً ، الأمر الذى لم يتهيأ من قبل فى غزوة من غزوات المسلمين وقد آن أن تتوزع الجهود ، فى الجهاد وفى عمارة الأرض ، وفى التجارة ، وفى غيرها من شؤون الحياة التى تقوم بها أمة ناشئة ؛ وهى تختلف عن مطالب القبيلة الساذجة ، وعن حاجات المجتمع القبلى الأولية . لذا نزلت الآية ﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ﴾ تبين هذه الحدود فى جلاء ، ولقد وردت روايات متعددة فى تفسير هذه الآية ، وتحديد الفرقة التى تتفقه فى الدين وتنذر قومها إذا رجعت إليهم ، والذى يستقيم عندنا فى تفسير الآية : أن المؤمنين لا ينفرون كافة ، ولكن تنفر من كل فرقة منهم طائفة - على التناوب بين من ينفرون ومن يبقون - لتتفقه هذه الطائفة فى الدين بالنفير والخروج والجهاد والحركة بهذه العقيدة ؛ وتنذر الباقين من قومها إذا رجعت إليهم ، بما رأته وما فقهته من هذا الدين فى أثناء الجهاد والحركة .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ وجوب مقاطعة كل من يسىء إلى عقيدته أو مجتمعه الصغير والكبير ـ وخصوصًا فى أوقات المحن والشدائد .

٢ ـ التزام الصدق ، ولو بدا فيه الهلكة ، وإيثاره على الكذب ففى الصدق منجاة .

٣ ـ للمجاهدين ثواب عظيم وأجر على كل جهد يبذلونه إذا أحسنوا العمل وأخلصوا النية لله.

٤ ـ فينبغى أن يكون غرض المعلم الإرشاد والإنذار ، وغرض المتعلم اكتساب الخشية لا التبسط والاستكبار .

٥ ـ وجوب التقوى والصدق فى النيات والأقوال والأحوال والأعمال .

٦ ـ حاجة الأمة إلى الجهاد والمجاهدين ـ كحاجتها إلى العلم والعلماء سواء بسواء .

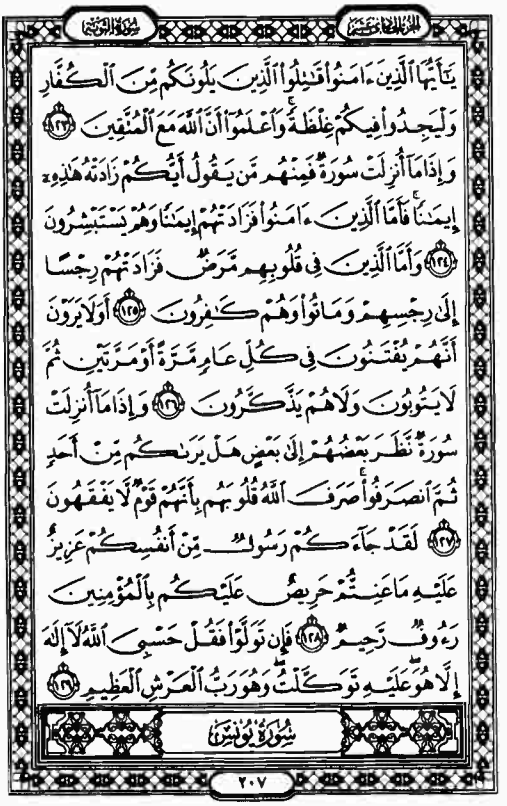
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ
وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾
وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ
إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ
﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا
إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ
أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ
لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ
سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ
ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ
﴿١٢٧﴾ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ
عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ
رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ
إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾
سُورَةُ يُونُسَ
٢٠٧

معانى الكلمات :

الذين يلونكم : الأقرب فالأقرب منهم .

غلظة : شدة وحمية وصبراً .

الذين فى قلوبهم مرض : المنافقون . والمراد بالمرض : النفاق .

فزادتهم رجساً إلى رجسهم : فزادتهم شكاً ونفاقاً إلى نفاقهم .

يفتنون : يختبرون .

من أنفسكم : من جنسكم وعربى مثلكم .

عزيز عليه ما عنتم : يصعب عليه ما يشق على أمته .

فإن تولوا : فإن أعرضوا عن الإيمان .

حسبى الله : يكفينى الله .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان أهمية استمرارية الجهاد لنشر الإسلام فى ربوع الدنيا .

٢ ـ أن نعلم آداب التعامل مع آيات الله وأوامره .

٣ ـ أن نفقه حركة هذا الدين وضوابطه المرحلية حسب زمنية التشريع.

المحتوى التربوى :

بعد بيان حدود النفير العام يورد السياق القرآنى للآيات خطة الحركة الجهادية ومداها كذلك وهما الخطة والمدى اللذان سار عليها رسول الله ﷺ وخلفاؤه من بعده بصفة عامة ، فلم تشذ عنها إلا حالات كانت لها مقتضيات واقعة . فأما الخطة الجهادية التى تشير إليها الآية فى قوله ـ تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ ﴾ .

فقد سارت عليها الفتوح الإسلامية ، تواجه من « دار الإسلام » ويجاورونها ، مرحلة فمرحلة . فلما أسلمت الجزيرة العربية - أو كادت ـ ولم تبق إلا فلول منعزلة لا تؤلف قوة يخشى منها على دار الإسلام بعد فتح مكة - كانت غزوة تبوك على أطراف بلاد الروم ، ثم كان انسياح

الجيوش الإسلامية فى بلاد الروم ، وفى بلاد فارس ، فلم يتركوا وراءهم جيوبًا ؛ ووحدت الرقعة الإسلامية ، ووصلت حدودها ، فإذا هى كتلة ضخمة شاسعة الأرجاء ، متماسكة الأطراف ؛ ثم لم يأتها الوهن فيما بعد إلا من تمزقها ، وإقامة الحدود المصطنعة فيما بينها على أساس القوميات !

وهى خطة عمل أعداء هذا الدين على التمكين لها جهد طاقتهم ـ وما يزالون يعملون وستظل هذه الشعوب التى جعل منها الإسلام « أمة واحدة » فى « دار الإسلام » المتصلة الحدود ـ وراء فواصل الأجناس واللغات والأنساب والألوان . ستظل ضعيفة مهيضة إلا أن تثوب إلى دينها ، وإلى رايته الواحدة ؛ وإلا أن تتبع خُطا رسول الله ﷺ وتدرك أسرار القيادة الربانية التى كفلت لها النصر والعز والتمكين .

يقول صاحب الظلال : « إن فقه هذا الدين لا يجوز أن يؤخذ عن القاعدين ، الذين يتعاملون مع الكتب والأوراق الباردة ، إن فقه هذا الدين فقه حياة وحركة وانطلاق وحفظ ما فى متون الكتب . والتعامل مع النصوص فى غير حركة لا يؤهل لفقه هذا الدين ، ولم يكن مؤهلاً له فى يوم من الأيام !

وتشير الآيات إلى أن أول المقصودين بالآية كانوا هم الروم ، وهم أهل كتاب ، ولكن لقد سبق فى السورة تقرير كفرهم الاعتقادى والعملى ، بما فى عقيدتهم من انحراف ، وبما واقعهم من تحكيم شرائع العبيد .

وهذه لفتة لابد من الوقوف عندها لفقه منهج هذا الدين فى الحركة تجاه أهل الكتاب ، المنحرفين عن كتابهم ، المحتكمين إلى شرائع من صنع رجال فيهم ! وهى قاعدة تشمل كل أهل كتاب يتحاكمون - راضين - إلى شرائع من صنع الرجال وفيهم شريعة الله ـ كتابه ، فى أى زمان وفى أى مكان !

ثم لقد أمر الله المسلمين أن يقاتلوا الذين يلونهم من الكفار وليجدوا فيهم غلظة ، وعقب على هذا الأمر بقوله : ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ ولهذا التعقيب دلالته ، والتقوى هنا .. التقوى التى يحب الله أهلها .. هى التقوى التى تنطلق فى الأرض تقاتل من يلون المسلمين من الكفار ، وتقاتلهم فى «غلظة » أى بلا هوادة ، ولا تميع ولا تراجع ، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله .

ولكنه ينبغى أن نعرف ـ وأن يعرف الناس جميعًا ـ أنها الغلظة مع الذين من شأنهم أن يحاربوا وحدهم - فى حدود الآداب العامة لهذا الدين - وليست هى الغلظة المطلقة من كل قيد وأدب ! إنه قتال يسبقه إعلان ، وتخيير بين : قبول الإسلام ، أو أداء الجزية ، أو القتال ويسبقه نبذ العهد ـ إن كان هناك عهد فى حالة الخوف من الخيانة - (والأحكام النهائية تجعل العهد لأهل الذمة الذين

يقبلون مسالمة الإسلام وأداء الجزية ؛ولا عهد فى غير هذه الحالة إلا أن يكون بالمسلمين ضعف يجعل الحكم المتعين فى حالتهم هذه هو الحكم المرحلى الذى كان فى حالة تشبه الحالة التى هم فيها » .

وقبيل ختام السورة التى تكلمت طويلاً عن المنافقين ، تجىء آيات تصور طريقة المنافقين فى تلقى آيات الله وفى استقبال تكاليف هذه العقيدة التى يتظاهرون بها كاذبين ، وإلى جانبها صورة الذين آمنوا وتلقيهم لهذا القرآن الكريم .

فأما الذين آمنوا فقد أضيفت إلى دلائل الإيمان عندهم دلالة فزادتهم إيماناً قد خفقت قلوبهم بذكر ربهم خفقة فزادتهم إيماناً ، وقد استشعروا عناية ربهم فى إنزال آياته عليهم فزادتهم إيماناً وأما الذين فى قلوبهم مرض ، الذين فى قلوبهم رجس من النفاق ، فزادتهم رجساً إلى رجسهم ، وماتوا وهم كافرون ، وهو نبأ من الله صادق ، وقضاء منه ـ سبحانه ـ مُحقق .

وقبل أن يعرض السياق صورة استجابتهم الثانية يسأل مستنكرًا حال هؤلاء المنافقين الذين لا يعظهم الابتلاء ، ولا يردهم الامتحان ﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ﴾ وتختم السورة بآيتين ورد أنهما مكيتان ، وورد أنهما مدنيتان ، ونحن نأخذ بهذا الأخير تتحدث إحداهما عن الصلة بين الرسول وقومه ، وعن حرصه عليهم ورحمته بهم ، الآية الثانية توجيه للرسول ﷺ أن يعتمد على ربه وحده حين يتولى عنه من يتولى ، فهو وليه وناصره وكافيه

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ النفاق صفة ذميمة لا ينبغى أن يتصف بها المؤمن ، بل يجب أن يكون ظاهره كباطنه .

٢ ـ المبادرة بالتوبة ، وتذكر نعم الله ـ دائماً ، وحمده وشكره عليها .

٣ ـ احترام وتوقير مجالس القرآن الكريم ، والانتفاع بما فيها من آداب فيها سعادة الفرد والمجتمع .

٤ ـ الإسلام دين السماحة واليسر ، وقد كان الرسول ﷺ مثالا حياً لهذه الأخلاق بما يتصف به من رأفة ورحمة ، وحرص على هداية المؤمنين وسعادتهم فى الدنيا والآخرة .

٥ ـ وجوب الجهاد واستمراريته إلى ألا تبقى فتنة أو شرك أو اضطهاد لمؤمن ، ويكون الدين والحكم كلاهما لله تعالى .

٦ ـ مريض القلب يزداد مرضاً ، وصحيحه يزداد صحة سنة من سنن الله فى العباد .

٧ ـ جواز الفرح بالإيمان والاستبشار بالعمل الصالح .